

الممالك الحليفة

أو

ممالك ما وراء النهر والدولة الاسلامية إلى أيام المعتصم

للدكتور محمد عبد الهادي شعيرة

العلاقات بين الترك الساكنين على الحدود الشرقية وبين الدولة الاسلامية علاقات حربية سلمية معا ، ولكن جانب السلم يفوق جانب الحرب ، ففي حين كانت الدولة تسعى فيه إلى فرض حلفها على الترك والتغلب بالحرب كانت تدعوهم إلى الاسلام والدخول في عداد أهله ، وكانت كذلك تتبع معهم سياسة خاصة عملية مرنة وهي إشرأهم في الدفاع عن حدود الاسلام .

ودرس هذه العلاقات هام ، لأنها هي التي هيأت الترك في زمن يسير للتجنيد ، حتى أصبحوا بعد نحو قرن واحد يؤلفون نواة الجيش الذي تعتمد عليه الخلافة ، وحتى أصبحوا من خير رعايا الدولة الاسلامية ومن أجلبهم مكاناً ، لا فرق بينهم في ذلك وبين الفرس والقوميات الأخرى التي احتضنها الاسلام .

ونريد في هذا المقال أن نعرف الترك وأقسامهم ، وأن نسجل إشرأهم المسلمين إياهم في حروب الشعوب ، قبل أن يسلموا ، وبعد أن أسلموا ، وأن نبين كيف كانت صلة الدولة بهم أدعى ما تكون للتفاهم ، غير مشابهة في شيء لصلات العرب بالشعوب الأخرى التي دخلت في حدود المسلمين . ونريد كذلك أن نسجل تقبل الأتراك للاسلام ، وسعي الدولة لنشر هذا الدين فيهم ، واستخدامهم في الجيوش المركزية . فان هذه المسائل كلها هي التي تبين سياسة الحلف الاسلامية نحو الترك .

وليس في عزمنا أن نعرض لفتح ما وراء النهر ، وما اقتضاه هذا الفتح من عمليات حربية -- لا تزال في حاجة إلى ترتيب ، ولا ما اقتضاه تثبيت النفوذ الاسلامي في هذه الثغور من الغزو السنوي . فان ذلك نوع آخر من البحث أساسه تحقيق الوقائع وتوقيتها . وهو بحث لم يخصصه أحد من المؤرخين المحدثين بدراسة خاص فيما عدا الأستاذ جب ولهذا تجاوزناه إلى درس العلاقات . ولعلنا نعود إليه في مقال آخر . (١)

حدود الاسلام قبل فتح أرض الترك

كان نهر المرغاب آخر أرض الاسلام حين استسلمت إيران . وذلك أن المرغاب كان الحد الشمالي الشرقي لإيران الساسانية . أما ما بين المرغاب وجيحون الذي هو حد ما وراء النهر المصطلح عليه في الجغرافيا ، فكان واقعا تحت نفوذ الترك . وكان الفرس فيه موالي للأتراك كما يقول بارتولد في مقاله بدائرة المعارف الاسلامية ، وكما يدل المصادر العربية . وكان يخيل للمعنى في تتبع الأخبار أن العرب قد اتخذوا حدودهم عند نهاية العالم الفارسي شرقا . فانهم لم يتجاوزوا هذه الحدود ولا المنطقة المجاورة لها إلى ما وراء النهر (وهو نهر جيحون) قبل عهد الوليد : الإمرات معدودات عبور المستكشف الموهوم جاره أنه يقظ على حماية أرضه وعلى صيانة هيئته وهوده .

ولم يكن بد مع ذلك من أن يتأنف العرب بصورة ما النزاع بين إيران وطوران ، استجابة لدوافع هذا النزاع الأصلية المتغلغلة أسبابها في الأحوال الجغرافية والجنسية . وقام العرب في ذلك مقام الفرس بين إعجابهم وتأنيدهم ، ولكنهم طبعوا مقامهم هذا بطابعهم الخاص .

ولكن العرب لم يفرغوا لاستئناف هذا النزاع بين إيران وطوران إلا في أيام الوليد . وذلك أن يزيدجرد ، آخر الأكاسرة ، لم يقتل إلا عام ٣٢ هـ . ولم

(١) ننوى جمع النصوص الخاصة بفتح ما وراء النهر وبالغزوات بعد ذلك

تلبث الفتنة الأولى أن قامت ، واضطربت طاعة خراسان ، وظلت ملتاثة حتى قتل على (١). وكانت خلافة معاوية ثم يزيد ، فاستقرت الأمور بعض الشيء ، والتفت المسلمون إلى حماية الحدود الشرقية ، فأنزلوا جندهم في مرو بعد عام ٥٤٥ (٢) . ثم كان عبور النهر لأول مرة على أرجح الروايات علي يد سعد بن الخليفة عثمان ، في النصف الأخير من خلافة معاوية (٣). ثم عبره من بعده سلم بن زياد. (٤) ثم كانت الفتنة الثانية وعام الجماعة الثاني . ولكن الخلافة لم تكذباً بعد ذلك من الاضطراب في المشرق (ثورات الخوارج وفتنة ابن الأشعث) ، فلم تفرغ لهذه الناحية حتى قام الوليد وولى قتيبة وقد اطمأن العراق ، ولا نكاد نسجل غزواً منتظماً بين عام الجماعة الثاني وولاية قتيبة (إلا غزو نيزك في بدخشان وغزو أخرون وشومان وغزو كس ونسف وغزو الحتل وغزو خوارزم (٥)).

وكانت بعض القبائل العربية المقيمة بخراسان اتصلت بالترك اتصالاً لم يكن رسمياً ولم يكن كذلك بمايسر ولاية خراسان ولا حكومة العراق والخلافة من ورائها لأنه نشأ من التجاء بعض القبائل العربية الساخطة إلى الترك وإجارة الترك إياهم . ولاشك أن هذا الاتصال عرف العرب هذه النواحي معرفة صحيحة لم تكن قليلة النفع حين عادت هذه القبائل نفسها وغيرها فيما بعد محاربة فاتحة تحمل لواء الطاعة لا لواء العصيان .

وذلك أن موسى بن عبد الله بن خازم التجأ إلى أرض الترك فإرض من أرض الاسلام وعرض نفسه على الملوك ، ملوك ما وراء النهر ، فلم يجره إلا صاحب سمرقند.

(١) راجع البلاذري : توح البلدان ، القاهرة : ١٩٣٢ ، ص ٣٩٩

(٢) نفسه ص ٤٠٠

(٣) نفسه ص ٤٠١

(٤) نفسه ص ٤٠٣

(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، القاهرة : ١٩٣٣ : ٤ - ص ٩٤ عام ٨٤ ، ص

٧٣ عام ٨٠ ، ص ٩٧ عام ٨٥

ثم إن صاحب سمرقند جمع له « نيزك » العبد المتغلب علي جبنوة ملك طخارستان ،
والسبل صاحب الختل ، وأهل صفانيان ، وأهل بخاري (١) وكش ونسف (٢)
لنعموه من ولادة خراسان. فأقام موسى ومن تبعه في نحو ٤٠٠ فارس وقوم من « بنى
سليم بما وراء النهر » (٣) . وأخيرا نجد المسلمين في شرق المرغاب يتبعون لأول مرة
أيام الوليد سياسة الفتح نحو الترك الذين استقروا غربي جيحون ، بينه وبين المرغاب
في القرن السادس الميلادي قبل الفتح الاسلامية . والواقع أن استقرار النظام الحربي
في الشرق قد تأخر

الشعوب التركية في «ما وراء النهر» :

(١) فأول من نعرف من الترك جماعة من «الهياطلة» في الطبسين بقوهستان (٤)
وهم فيما يقول البلاذري إما ترك وإما فرس غربة نزحوا من هراة نحو الجنوب «
فصاروا مع الأتراك فكانوا معاوين لأهل قوهستان ، وكان اليونان يعدوهم
Indo Scythe . والراجح أن الهياطلة انحسروا إلي هذه النواحي الجنوبية
وأن أمرهم لذلك لا يعنينا في دراسة ما وراء النهر ، ويكفي أن نذكر أنهم ظهروا في
القرن الخامس الميلادي ، في منتصفه تقريبا ، قادمين من الشرق ، من أواسط آسيا
فاستولوا علي ما وراء النهر من يد طائفة أخرى سنتحدث عنها بعد قليل ، هي طائفة
اليوتشي أو الطخارية . ويسمى الهياطلة بالفرنسية Hephtalites وبالانجليزية
Ephthalites . ويسمون أيضا بالهون البيض . وليسوا فرسا كما توهم بعض روايات
قلها ابن الأثير ، وإنما هم شعب مغولي الأصل .

(١) ابن الأثير : الكامل - ٤ ص ٩٩ عام ٨٥

(٢) نفسه ص ١٠٠ عام ٨٥

(٣) نفسه ص ٩٧ عام ٨٥

(٤) البلاذري : فتوح ص ٣٩٤

(٢) وأقدم منهم وأبعد أثرا في تاريخ ما وراء النهر شعب آخر ، هو الذي يسمى عند الصين يوتشي ، (١) ويسمى عند العرب باسم اللهجة المغولية التي كان يتكلمها وهي الطخارية . وهو شعب استقر في هذه النواحي منذ آخر القرن الثالث الميلادي حتي غلبه الهياطلة في منتصف القرن الخامس . ثم استرد قوته حين انساح الهياطلة نحو الجنوب وتضائل أمرهم ، وعظم الطخارية مرة أخرى . وكان ملكهم يتلقب بلقب جيعوية . ونستطيع أن نؤكد أن تفوذهم أيام الفتح العربي كان يمتد إلى نهر المرغاب غربا ويصل إلى مرو الروز . (٢) وقد فرضوا حلقهم على دهاقين المدن الفارسية الكبرى الواقعة شرقي المرغاب . فان كتب التاريخ تذكر هؤلاء الترك الطخارية إلى جانب دهاقين المدن الكبرى الواقعة بين المرغاب وجيحون : وهي الجوزجان والطاقان والغارياب . وقد اصطدم العرب بهذا الحلف حين أرادوا تجاوز نهر المرغاب أولا ، وحين ثارت طخارستان عقب فتوح قتيبة ثانيا . كانت هذه المملكة أوسع ممالك الترك في هذه الناحية . ولكن الانقسامات فرقت بين أجزائها .

لقد كانت تشمل كل الحوض الأعلى والأوسط من نهر جيحون وتمتد علي ضفتيه وتضم أرض الختل وبذغشان (٣) والطاقان (٤) وصغانيان وشومان وأخرون ، ولكننا لا نجد مع ذلك دليلا علي أن أرض الختل كانت من طخارستان

(١) انظر Lostrange: *Lands of the eastern califate* ص ٣٨ : ١٥٠ ص ٤٣٣ ص ٦ وانظر
Albertini: *L'empire romain*; vol. IV de la collection: *Peuples et Civilisation*
ص ٤٠٩ .

(٢) البلاذري : فتوح ص ٣٩٦

(٣) أقرأ بذغشان بدل باذغيش الموجودة في ابن الأثير والسبب في هذه القراءة أن الذي يقال عن باذغيش لا ينطبق إلا علي باذغشان ما وراء النهر ، فقد اشترط صاحبها علي قتيبة « ألا يدخل عليه باذغيش » وهو شرط لا يمكن تصوره بالنسبة لباذغيش القريبة من المرغاب . (٤) والطاقان هنا غير الطاقان الجوزجانية ، وترسم بالياء أحيانا بدل اللام وهو الرسم الأصح ويروها رافد من جيحون ، وتقع علي مرحلتين شرقي ولواج (انظر لستراخ ٤٢٨)

وإنما أدمجناها فيها لتداخلها بين أجزائها ولتضامها معها أحيانا ، أما بذخشان فإن مصادرها تقول إن صاحبها نيزك كان عبدا لجبغوية غلب عليه ، وهو الذي اتصل بالعرب محاربا ثم مصالحا ثم مخادعا ومراوغا ، أما صفانيان (وهي بالعجمية جفانيان حسب صبح الاعشى) فإنها كانت حليفة طخارستان ، أما شومان وأخرون فإن ابن الأثير يقول «ها من طخارستان (١)» ، وإن كان السياق لا يؤكّد ذلك ، وكانت بلخ مدينة طخارستان . فكانت هذه المملكة حسب هذا التحديد تحتل مركزا وسطا بين شرقي إيران وأعلى نهر جيحون أو بين السهول والجبال (٢)

ويذكر صاحب صبح الأعشى أن طخارستان « هي بلدان في أعلي نهر جيحون قاعدتها ولوالج (٣) وهي مقر مملكة الهياطلة في القديم ولها مدن منها اسكلكند (٤) وروان (٥) وهي مدينة طخارستان » ، ثم يذكر نفس المؤلف إقليم بذخشان (بالحاء وقد رأيناها بالعين) ويجمعه في أعلى طخارستان متاخما لبلاد الترك . وواضح أن هذا الوضع لم يكن وضع القرن الذي نتكلم عنه ، ومن الواضح كذلك أن التحديد الذي نجده في الأخبار الطوال (٦) أوسع من التحديد الذي استخلصناه وأقرب من تحديد القلقشندي ، فانه يقول (ص ٦١ و ٦٩) إن بلاد الهياطلة هي تخارستان (بالتاء) والصفانيان وكابلستان (٧) وزابلستان (٨) والأرضين التي خلف النهر الاعظم مما

- (١) Lestrangle يجهلها من منطقة قباذيان وهو تحديد لا يتعارض مع دخول هذه المملكة في الحلف الطخاري ، ولكن انظر ابن الأثير : الكامل - ص ١٠٥ ، ١٠٧ .
(٢) اقرأ البلاذري : فتوح ص ٣٩٧-٣٩٨ نجد الروايات المذكورة توحى بتحديد خاص
(٣) ولوالج ترسم أيضا وروالج (الراء بدل اللام) وروالز (الزاي بدل الجيم) أما رسمها بالتون في آخرها كما ذكر ياقوت فخطأ ، وتقع ولوالج علي مرحلتين من خلم .
(٤) اسكلكند : لم أهد إليها .
(٥) ولم أهد إليها كذلك
(٦) أبو حنيفة الدنيوري : الأخبار الطوال ، بغداد — القاهرة ص ٦١ ، ٦٩ .
(٧) يعني إقليم كابل وغزنة
(٨) زابلستان حسب Lestrangle ص : ٣٣ ، ٣٤٩ تقع بين أعالي نهر هلمند أو هند مند ونهر خواش الذي يصب في بحيرة زاره . وفي شمالي زابلستان يقع إقليم الغور (والفورود منابع انهار كثيرة تتجه الي الشمال نحو خراسان والى الجنوب نحو زابلستان .

إلى بلخ، ويذكرون من ملوكهم اخشنوار ووزر، وكانت لهم منعه وكثرة تحيف (١) وهو تحديد ساقه الدينوري عند كلامه على هرمز (٢) بن يزدجرد ولكننا نترك تلك التحديدات القديمة ونعتمد على التحديد الذي استخلصناه، ثم إن طخارستان تقلصت أمام سلطان العرب وقعدت كل نفوذها شرقي الرغاب (٣) وقعدت بلخ وانزوت شرقي بلخ وسمنجان (٤) وضاع نفوذها في صفانيان وشومان، واتخذ الختل موقعا أبلغ في المقاومة من باقي طخارستان نفسها، وأصبحت مملكة جيغوية تقتصر على حوض جيحون الأعلى .

أما جنس الطخارية فلم تحدده النصوص العربية لأنها تذكرهم مرة على أنهم أحلاف الهياطلة ولأنهم ينسبون أحيانا آخري إلى الخرخية أو القرلقية، وهي نسبة لا يؤيدها مصدر آخر، لأننا لا نسمع عن القرلقية إلا بعد ذلك بنحو قرنين (٥) ولعل تعريفهم بلهجهم الطخارية أصح ما يقال عنهم .

ثم إننا نرى ممالك طخارستان بعد هذا التضامن منفردة يقوم كل إقليم منها بذاته، ويكيف حسب استعداده الخاص موقفه من العرب، ثم إن موقف العرب لم يكن واحدا بالنسبة لهذه الأقاليم جميعا .

(٣) أما مملكة الختل فانها تأخرت بالطاعة زمنا طويلا، وكانت أول الأمر من حلفاء طخارستان على الأرجح ثم كانت بعد منفردة من أشد أعضاء الحلف الطخاري مقاومة للمسلمين، ولا مفر من أن نلاحظ أن العرب طاولوا الختل حتى

(١) الطبري : تاريخ - ٢ ، ص ٩٩ (ط. القاهرة)

(٢) يدل هذا التحديد أولا على أن مملكة الهياطلة كانت أوسع من طخارستان كما عرفت

تقبل فتوح المسلمين (ص ٦١)

(٣) انضم الترك أول الأمر للمسلمين وسالحوهم ثم انهم خافوا لما يزورون من فتوح المسلمين كما يروي ابن الأثير ح ٤ (ص ١١٤ سنة ٩٠) كما أنهم لم يقطنوا للأمر منذ بدئه فلما فطنوا عمدوا إلى التصيان ثم قدمت ثورتهم سنة ٩١

(٤) البلاذري : فتوح ص ٣٩٩

(٥) انظر مقالة يارتولد عن القراق في دائرة المعارف الاسلامية

استيقنوا من عجزهم وانكسرت حدتهم بانتشار الاسلام بينهم ، وأن العرب فحزوا من سبق الحوادث ومن التسرع وتجنبوا جرح كبرياء هذا الشعب .

وتقع أرض الختل بين نهر وخشاب وجيحون في أرض مرتفعة يتوسطها وادى نهر أخش ، ويقول لسترانج إن بلاد وخش منها ، وإنها تقع في أعلى الختل حيث ينبع نهر وخشاب

ويرجح لسترانج أن الختل هم الهياطة وأن الاسمين متقاربان صوتيا ، وهو ترجيح متسرع بعيد لا يبرره إلا قلة ما تمدنا به المصادر من المعلومات عنهم (١)

ونستطيع أن نتقدم برأى في جنس الختل على أساس التجاه ملوكها إلى بلاد خاقان : وهو أن الصلة بينهم وبين ترك آسيا الوسطى صلة قرابة بين الشعبين كما سري بعد

(٤) أما الصفانيان من ناحية ، وشومان وآخرون من ناحية أخرى ، فهما البلدان اللتان اختلفتا فساقتا إلى العدو ، فتيبة ، وكان لها بالمرصاد ، مصما على إخضاع هذه النواحي ، يضع الخطط لذلك . فسارع إلى استغلال خلافها ، فلم تكن إلا هامة يسيرة حتى خضع الجميع لسلطان الدولة الاسلامية ، أما ملك الصفانيان فانه تقدم بالمهدايا ومقايح من ذهب ، أما ملك شومان فانه صالح علي فدية ، وفي نفس الوقت استسلمت بلخ وهي مدينة طخارستان ومدينة النوبهار الذي كان يسده برمك ، جد البرامكة .

وهكذا كان أهل هذه الناحية من أسبق الولايات طاعة ، وكانوا من أكثرها وقاء وخاصة صفانيان ، ولم يلبث صاحب صفانيان ، وصاحب شومان وآخرون (٢)

(١) Lestrangle ص ١٥٣٨ .

(٢) ابن الأثير : ج ٤ ص ١٨٦ ، ١٩٤ ، عام ١٠٤ ، ١٠٦ .

أن اشتركوا في الحرب إلى جانب المسلمين .

وهكذا نجد هذه المنطقة تكاد تؤلف جماعة ذات مصالح مشتركة يتنازعون عليها وميول متقاربة . وهي منطقة يرونها نهران : أحدهما نهر صفانيان الذي يسمى أيضا نهر زامل ، وثانيهما نهر قباذيان ، وكلاهما من رواقد جيحون اليميني ، وكلاهما ينبع من جبال البهم وبمجري عموديا تقريبا إلى جيحون ، وهي منطقة تستدير بظورها إلى إقليم الصفد ، وليس بينها وبينه إلا طريق واحد مباشر هو طريق الباب الحديد الموصل بين ترمذ وسمرقند عن طريق الباب الحديد وكش . وفي أعلى هذه المنطقة أرض الختل وهي منفصلة عنها لأنها جميعا متوازية واقعة حول أنهار متوازية كافية أهلها عن الخلطة والاجتماع ، وإذا كان حقا أن هذه الأنهار تصب كلها في جيحون فإن جيحون يؤلف حدود هذه الأقاليم من الجنوب ثم إن العمران مقصور على أقاليم الضفة اليميني وحدها لأن الضفة الأخرى تحف بالصحراء .
ومدينة هذه الناحية صفانيان والراجح أنها اليوم ساري آسيا (١) وتقع على المجري الأعلى لنهر زامل .

أما شومان وآخرون (وقد اختلف رسم المدينة الأخيرة فصنفوا في كتابة الخاء وقرأوها القراءات الممكنة) فانهما مدينتان خاضعتان لسلطان ملك واحد ، أما شومان فالراجح أنها اليوم حصار وتقع على الحوض الأعلى لنهر قباذيان ، أما آخرون فقد أهمل الجغرافيون ذكرها فلم نستطع إثباتها في الخريطة .

(٥) أما كش ونسف التي تسمى بنحشب أيضا فانهما لا تكادان تتصلان بالعالم الطخاري الصفانياني الذي رأيناه ، ولكنها أقرب إلى بخارى وسمرقند وأكثر صلة بهما ، وكان صاحب كش يستنصر ملك سمرقند كما يستنصر الضعيف بالقوى لا التابع بالمتبوع (٢) ، وعندها

(١) Lestrangle ص ٤٤٠

(٢) ابن الأثير : ص ٤٠٠ عام ٩٨٥

يبدأ الاقليم الذي حرص العرب علي إقرار سلطانهم فيه لأنه طريق من طرق الغزو الذي يستطيع ترك آسيا الوسطى البعيدون أن يتخذوه إلى أرض الاسلام ، لكن كش ونسف منحرفتان بعض الشيء إلى الجنوبي من هذا الطريق الأكبر، لهذا نجد قتيبة لا يتجه إلى هذه الناحية إلا سنة ٨٩ يعني بعد أن ابتداء عمليات الفتح بثلاث سنين (١) ثم إنه لا يتجه إليها إلا ليصل منها إلى إقليم سمرقند وبخاري .

(٦) ولننتقل بعد ذلك إلى أكثر الترك أهمية وهم أهل بخاري والصفند ، أهل سمرقند ، الذين حملوا اسم سجديانا القديم . وبلادهم تقع علي طريق آمل وهو أدنى من طريق زم (علي جيحون) التي توصل إلى كش ونسف وأدنى كذلك من بلخ ورمذ اللتان تؤديان إلي صفانيان وشومان وآخرون ، وتقع بخاري والصفند في أخصب بقاع ما وراء النهر ، وعلي أكبر طريق يؤدي من وسط آسيا إلى العالم الاسلامي ، وري لفظي بخاري والصفند متلازمين ، ولكن المراد بهما علي أي حال هو أهل بخاري وما حولها وأهل سمرقند وما حولها ، وكان لكل منهما ملك ، ملك بخاري ويلقب عادة ببخاري خندان ، وملك الصفند ولا تجعل له النصوص لقباً آخر ، ولكننا نراها دائماً علي وفاق تام وعلي تساعد ، ومع هذا فانا نجد الصفند أشد مقاومة للعرب وأكثر تمسكا بالقومية التركية وأجلب للحرب مع العرب ، ونجد ملك الصفند أبعد صوتاً وأعلي قدراً بين ملوك ما وراء النهر عامة .

كش ونسف وبخاري وسمرقند مدن إقليم يكاد يكون واحداً متصلاً . وتتألف وحدة هذه الاقليم من نهرين يقعان بين جيحون وسيحون : أحدهما نهر الصفند المعروف الآن باسم زرفشان وتقع عليه سمرقند ثم بخاري ، وتقع سمرقند علي ١٥٠ ميلاً شرقي بخاري (٢) ، وعلي النهر الثاني تقع كش ثم نسف ولكن نهر الصفند كان

(١) نفسه - ٤ ص ١١٠ عام ٨٩

(٢) Lestrangle ص ٦٣

أهم لوقوع مدن هامة عليه غير ما ذكرنا مثل بنجيكت وورغسر (أو رأس السد) والدبوسية .

(٧) وفي أدنى نهر جيحون يقيم ترك خوارزم ، في أقصى الشمال الشرقي من الحدود الاسلامية جنوبي بحيرة آرال ، وملك هذا الاقليم يلقب بخوارزمشاه وعاصمته هزاسب ومدينة الفيل من أحسن مدنه (١) .

(٨) ومن وراء جميع الترك الذين ذكرنا ، وعلي ضفاف سيحون نجد الممالك السيحونية وهي فرغانة بأخاشيدها ، وأشروسنة بأفاشينها ، والشاش .

أما فرغانة فتقع في أعالي سيحون على ضفتيه ، أما الشاش فتقع أدنى منها على الضفة اليمنى من النهر ، ويقابل الشاش علي الضفة اليسرى أشروسنة ، وقد عنيت روايات الطبري بفتح فرغانة وأهملت فتوح الاقليمين الآخرين تقريبا ، ولكن هذا الاهمال يسير العاقبة لأن فتح فرغانة يفترض في نفس الوقت فتح أشروسنة والشاش (٢) ، وتذكر مصادرنا أن العرب غزوا خجندة ثم كاشان عاصمة فرغانة ، ثم فتحوا اخشيكت وهي مدينة فرغانة القديمة (٣) وتذكر نفس المصادر من مدن فرغانة كاشان وأورشت ، وقد غزا العرب في نفس الوقت مدينة الشاش كذلك (٤) ولم يكن العرب أبطال هذه الحروب وحدهم ، فقد شاركهم الغزو أهل خوارزم وكش وشف وبخاري والسغد وغيرهم من الترك .

ولكن موقف هذه الممالك السيحونية كان كوقوف الصغد (بالصاد أو السين علي السواء) من حيث المقاومة الطويلة واحتضان المعارضة .

(١) ابن الأثير : ٤ ص ١٢٥ / ١٢٦ عام ٩٣

(٢) الطبري : ٨ ص ٩٢ / ٩٤ ، ابن الأثير : ٤ ص ١٣١

(٣) ابن الأثير : ٤ ص ١٠٥ عام ٨٦

(٤) لا يذكر شيء عن اشروسنة ولعلها سالت دون حرب لأننا لا بد أن نفترض ذلك لنسلم بأفعال المسلمين الي الشاش

(٩) ومن وراثتهم جميعا خاقان وهو لقب الملك الذي يحكم ترك آسيا الوسطى وهم في أقصى الشرق فيما يلي ما وراء النهر بعد نهر سيحون وما علي ضفافه من الممالك التي ذكرنا ، ولا تمدنا مصادرنا بشيء عن جنس هؤلاء الترك .

ولكن مصادرنا تعتبر هذه المنطقة البعيدة منطقة الترك ومنطقة الصين في آن واحد ، فمدينة كاشغر مثلا تعتبر « أدنى مدائن الصين (١) » بمعنى أن الصين تبدأ من الحدود الشرقية لما وراء النهر، ولهذا يعتبر ملك الترك في هذه النواحي أيضا ملك الصين ، ويتضح ذلك حين نجد إخشيد فرغانة يستمد ملك الصين فيمده بجيش يبلغ طراز فيلقاه هناك جيش إسلامي يهزمه . « فانهزم وهرب الفل إلى الصين (٢) » وإذا قيل أن ملك الختل هرب إلى الصين (٣) فمعنى هذا أنه قصد هذه الناحية .

ونجد خاقان أو ملك الصين يتدخل لنجدة ترك ما وراء النهر وصد العرب عن بلادهم، ولكنه ينب عن نفسه في أكثر الأحيان فنجد مرة ابن اخته (ابن اخت ملك الصين) كورنعايون أو كور بغايون ، (ابن الأثير ج ٤ ص ١٠٩ سنة ٨٨ في غزوة نومشكت) أو ابته (سنة ٩٠ ص ١١٤ في فتح بخارى وسنة ٩٣ ص ١٢٦ مشتركاً في الدفاع عن سمرقند مع الصفد وأهل الشاش وسنة ١٠٦ ص ١٩٤ مغيرا علي ما وراء النهر) أو ابن أخيه (سنة ١١١ ص ٢٠٦) أو بعض قواده ، مثل كورصول (وإن كان السرد بعد ذلك يذكر خاقان) ، ونجد خاقان كذلك غازيا بنفسه (سنة ١١٢ ص ٢٠٨ / ٩ مهاجرا سمرقند وسنة ١١٩)

ونفهم من المصادر أيضاً أن ملك خاقان أو ملك الصين هذا كان ملكاً موحداً . وكان أقوى من جميع ممالك ما وراء النهر ، وتظل هذه الوحدة إلى أن يغدر كورصوف يقتل خاقان

(١) نفسه : - ٤ ص ١٢٥ ٩٦

(٢) نفسه : - ٤ ص ٣٤٢ عام ١٣٣

(٣) نفسه : - ٤ ص ٢٣٣ عام ١١٩ .

ويتشعب أمر الترك (١) فنجد كورصول يوصف بعد ذلك بأنه ملك من ملوكهم صاحب أربعة آلاف قبة ، ولا شك أن كورصول المقصود هنا هو نفس كورصول الغادر بخاقان لأن النصوص تقول ذلك صراحة (٢) ، والراجح إذن أنه استقل بناحية وجماعة حين ضعف أمر الخاقانية .

أما ملك خاقان فلا نعرف حدوده

أما شعب خاقان فلا يسمى في مصادرنا باسم خاص (٣) ، غير أن هذه المصادر تقيم صلة بين ملوك الختل وبين الخاقانية ، وذلك أنها تروي أن خاقان أرسل إلى والي خراسان في بعض حروبها رسولا ، فناداه « قد كان لك فيما وراء النهر مغزى ، إنك لشديد الحرص ، وقد كان عن الختل مندوحة ، وهي أرض آباءى وأجدادى (٤) » وهي صلة تؤيد كذلك من ناحية أخرى ، فإن بيت الملك في أرض الختل كان يجعل من الصين مأواه ، فإن ابن السبل كان حرب الصين في حياة أبيه لسبب نجسه ولا يهنا أن نعرفه الآن ، فلما مات أبوه أوصى أن يسترد ملكا على الختل (٥) ولكن إثبات هذه الصلة وإن كان هاما في ذاته لا يقدم شيئا في تعريف هذا الجنس التركي الواحد المقيم في أرض الختل وفي وسط آسيا .

ومها يكن من شيء فإن ترك الخاقانية أو الصين كما يسمون أحيانا كانوا عنصرًا هاما في تكييف السياسة فيما وراء النهر لأنهم أعانوا ملوكه أكثر من مرة ولم يقتصروا على ذلك ، فانهم طمعوا في طرد العرب من وراء النهر كله ، وفي طردهم

(١) ابن الاثير : ح ٤ ص ٢٢٨ عام ١١٩

(٢) نفسه : ح ٤ ص ٢٤٣ عام ١٢١

(٣) يقول بارتولد أن خاقان هذا هو خاقان الترك الغربيين (بالنسبة للصين حسب الاصطلاح الحديث) وم ترك التركش المعروفون باسم أون أون أو أي السماء العشرة نسبة لعدد قبائلهم ، وإن طاصتهم على نهر جو ، ويفترض أنها تسمى نواكث

(٤) نفسه : ح ٤ ص ٢٢٧ عام ١١٩

(٥) نفسه : ح ٤ ص ٢٣٠ عام ١١٩

من خراسان كذلك ، فان بعض سلالة يزدجرد كان في حاشية خاقان حين هاجم العرب سنة ١١٠ (١) وكان خاقان يدعو العرب فيما وراء النهر أن يدخلوا في طاعته علي أن يضاعف لهم العطاء ، وكان سليل يزدجرد يقول « يامعشر العرب ، لم تقتلون أنفسكم ، أنا الذي جئت بخاقان ليرد إلي مملكتي ، وأنا آخذكم الأمان » .

— ٢ —

سياسة فرض الحلف والاضطلاع بحماية الحلفاء (إنشاء الحاميات)

أول ما يجب أن يقال عن ممالك ما وراء النهر أن فتح المسلمين إياها لم يخضعها لأحكام الاسلام السياسية ، وأنها لم تصبح بمجرد الفتح بمنزلة خراسان والعراق والشام ومصر . وإنما كان مثلها مثل أرمينية في أن كل طرف من هذه الأطراف اعترف بسلطان الاسلام وظل محتفظا بأربعة أشياء : بجيوشه وإدارته ورؤسائه وحرية الدينية ، واحتفظ لذلك ببعض شخصيته السياسية المستقلة ، ودنعه هذه الشخصية إلى تقض الحلف وخلق سلطان المسلمين أكثر من مرة .

وكان أشد ما تحرص عليه الدولة الاسلامية طاعة هذه الأقاليم وإنشاء الحصون والحاميات لحماية الحلفاء ، لما في ذلك من حماية فعنة لأرض الاسلام .

ورى من هذين التلئين أن الاسلام حرص علي إحاطة نفسه بدول صديقة حليفة . وسعى إلى هذه الغاية بالسياسة والسيف معا .

وقد نجحت سياسته الحلف هذه مع الأتراك نجاحا عظيما لم يتبها مثله في أرمينية وأخذت الفروق بين الحليف القوي والحليف الضعيف تزول شيئا فشيئا إلى أن أصبح الترك عنصرا هاما في الدولة وأصبحت بلادهم سدا منيعا في وجه من وراءهم من الأتراك غير المسلمين ، بل أصبحت منطقة وسطى ينزلها الترك فيستحيلون

(١) نفسه : ص ٤٠٤ ، ٢٠٤ عام ١١٠

فيها إلى رعايا مسلمين . وقد ارتسنت هذه السياسة أيام الأمويين ، وتمت واتسعت أيام العباسيين الأوائل لقلية الروح الاسلامية على سياستهم . وحتى الاسلام من وراء ذلك تمارا نظن أنها إذا أخذت جملة كانت خيرا للدولة الاسلامية .

لم يكن إقليم ما وراء النهر يخضع إذن لسلطان واحد ، بل كان ممالك عديدة تتضمن في بعض الأحيان وتفترق في كثير من الأحيان ، ولم يكن هذا الحال الفرق مما يحضنهم من العرب .

وقد كان من مرونة السياسة العربية ومن قلة خطئها أن تحاشت في أكثر أمرها العنف الجارح للعزة ، الباعث على التضامن في المقاومة .

ولم تكن طاعة هذه الممالك للعرب بدرجة واحدة ولا في وقت واحد . فإلى هذه البلاد التي أقر المسلمون فيها حامياتهم وغزوا ما وراءها : كانت توجد بلاد أخرى يكتفي العرب فيها باقرار نفوذهم ولا يغزون ما وراءها ، ولا يحرضون إلا على طاعتها هي ، وسبب هذا التفريق هو أن العرب كانوا يحشون من وراء الطائفة الأولى ولا يحشون من وراء الأخرى ولا يتوقعون منهم الغزو أو التعرض لبلاد الاسلام .

وقد خدعت هذه الأحوال بعض الممالك فقبلت نفوذ العرب ، ولو كان احتلالا ما قبلته في سهولة ، فلما حول العرب نفوذهم احتلالا ، كانت هذه الممالك قد تأثرت بالاسلام وتهيأت للاحتلال .

بدأ خضوع طخارستان للمسلمين أيام فتوح قتيبة فقط . وقبل جينغوية عنده عاملا عربيا . ولم يكن هذا العامل يعتمد على جيش عربي مقيم بالناحية ، وإنما كان اعتماده على هيبة الاسلام وعلى الحلف الذي ربط هذه المملكة بالاسلام، واشترك الطخاريون ونيزك خاصة في الغزو مع المسلمين (١) ، فلما رأَت طخارستان من فتوح

(١) ابن الاثير ج ٤ ص ١١٤ عام ٩٠

العرب في ما وراء النهر ما هالها خشيت علي نفسها، وكأنها لم تكن فطنت إلى عواقب الحلف . فثارت أول مرة عام ٩٠ ، أيام قتيبة ، ولكن المسلمين فرضوا عليها حلفهم ، واحتلوا مدينة بلخ ، وقبل الطخاريون الحلف الذي خافوه وثاروا عليه من قبل . فلما كانت غزوة خاقان الكبرى عام ١١٩ ، نزل خاقان في بعض حروبه (١) عند جيفويه ، فلما انتهت الغزاة وبعد الخطر الخاقاني عادت طخارستان إلى الطاعة ، ورأينا فيها جاليات عربية ، فقد كان بها عام ١١٩ بطون عربية من تغلب ناصرته الحارث بن سريح (٢) وكانت قائمة يومئذ في «قلاع طخارستان العليا» ، وكان بها كذلك في أيام المنصور جند إسلامي أيام ثورة استاذسيس (٣) ، وهكذا تحول النفوذ احتلالا . ولكننا لا نجد العرب يحاولون غزو من وراء هذه المملكة .

أما الختل ، وهم الوحيدون الذين بالغوا في الاعتزاز بقوميتهم في هذه الناحية ، فإن العرب ظلوا يغزوهم ويقبلون منهم الطاعة الاسمية أحيانا ، ويبادونهم الحرب أحيانا . ولم يقصروا في انتهاز الاضطرابات الداخلية . فإن والي خراسان احتج علي ملك تولى أمر هذه البلاد بأنه ليس من بيت الملك ولا صاحب حق في ولاية الأمر . ولعل هذا التحاج هو الذي أعاد علي الختل أحد أبناء بيت الملك (أسد بن عبد الله بن خالد القسري حاج بذلك بدرطرخان (٤))

فإن كان المسلمون غزوا الختل قبل أزمان الفتوح ، فإنهم كادوا يهملونها أيام قتيبة ، دليل ذلك أن قائدا يسمى عطاء لقب بالختلي في أيام معاوية (وهو تلقب بدل علي غزو الختل في هذا الوقت المبكر وعلى موقعها للتنذر بالخطر) . ولا يضع من قيمة هذه الحججة أن لقب الختلي إنما هو قراءة خاصة ، وأن طبعة البلاذري المصرية

(١) نفسه ج ٤ ص ٢٢٧ عام ١١٩

(٢) نفسه ج ٤ ص ٢٢٥ عام ١١٨

(٣) نفسه ج ٥ ص ٢٩ عام ١٥٠

(٤) ابن الاثير : ج ٤ ص ٢٢٣ عام ١١٩

تلقبه بالختل بالشين الثالثة ، فهو تليق غير مفهوم لا معنى له ولا ينطبق على قائد من القواد ذى بلاء لا ينسب إلي ضعف أو تظامن ليكون مُخشلاً كما قرأ القارئون ، ثم إن بعض قناطر قريية من أرض الختل وبلغ منصوبة على جيحون تنسب إلى عطاء هذا (١) . أما فتية فانه حين بدأ فتوحه لم يعرض للختل ولا لأرضهم ، حتى تمت فتوح ما وراء النهر دون أن يلتفت المسلمون إلى هذه الناحية أو يتعرض لهم الختل ، فلما تم ذلك واستقر المسلمون في نواحي بخاري وسمرقند أخذوا يغزون الختل ، وكانت مغازيمهم بها حول سنة ١٠٠ سنة ١٠٨ سنة ١١٥ ، فكانوا يرجعون بالعنائم والسبي (٢) وكان ملكها أكثر الملوك محاربة للمسلمين (٣) . ثم كان غزو خاقان فاجتاز نفوذ المسلمين في أرض الترك أزمة خطيرة لم تنته حتى انتهت معها كل مقاومة في جميع ما وراء النهر تقريبا ، فرجع ملوك الختل إلى خطة أحكم وأجدى من الناحية العملية وهي خطة للدافعة والخضوع معا ، وهي خطة رسمها لهم ملوكهم ، قالوا : « لا تجاروا العرب وادفعوها عنكم بكل حيلة... وإنكم إن حاربتوهم هلكتم » (٤) . وقد عرف العرب من ملوكهم السبل ثم ابن السامجي ثم بدرطرخان ، وكان رجلا من الباميان بلغ الملك (٥) ثم الحنيس بن السبل (٦) . وكان حنيس متصلا بترك آسيا الوسطى الذين يسمون بالصين أيضا ، لجأ إليهم أيام أبيه لسبب لا نعرفه ، ثم لجأ إليهم مرة ثانية حين احتل العرب بلاده .

كانت إذن للعرب سياسة خاصة وملوك هذه الناحية سياسة خاصة ، وكان من

(١) البلاذري ص ٤٠٠

(٢) ابن الاثير : ج ٤ ص ١٥٨ عام ١٠٠ ص ١٩٨ عام ١٠٨ ص ٢٣٠ عام ١١٩ ، ص ٣٤٢ عام ١٣٣

(٣) ج ٤ ص ٢٣٠ عام ١١٩

(٤) نفسه

(٥) نفسه : ج ٤ ص ٢٣٣ عام ١١٩

(٦) نفسه : ج ٤ ص ٣٤٢ عام ١٣٣

أدواتها كذلك الجيوش في وقت واحد، وقد تأخر لذلك احتلال هذه البلاد (أرض الختل) إلى أيام أبي مسلم فإنه وجه إليهم أبا داود خالد بن إبراهيم فدخلها (قادما من الوخش إليها^(١) عام ١٣٣)، ولم يستطع ملكها حنيش بن السبل إلا أن يتحصن «هو وأناس من الدهاقين» و«شاكريته». فلما يئس خرج بمن معه إلى فرغانة ثم دخلوا منها «إلى بلد الترك وانتهوا إلى ملك الصين»، وإنما حرب إلى فرغانة أولا لأن مدداً صينياً (أو قف تركياً) كان بها يعين إخشيداً علي ملك الشاش^(٢). وقد كان حنيش حرب إلى الترك من قبل أيام أبيه^(٣). ولم تقم لهؤلاء الختل بعد حرب حنيش قائمة، ولم تسمع المعارضة عن نفسها شيئاً، ويمكن لسلطان المسلمين بالبلاد، وهكذا اكتفى العرب في هذه الناحية بالنفوذ البعيد والمطاول، إلى أن أدام هذا الطريق إلى إخضاع البلاد إخضاعاً تاماً واحتلالها.

ولم ينج صغان خداه من غزو العرب واحتلال بلاده إلا لأنه وفد على قتيبة بالطاعة وبمفاتيح من ذهب. فكفى العرب كل حيلة ولم يضطروهم إلى احتلال البلاد ولم يفدر قط في المناسبتين اللتين غدر فيها كل ملوك ما وراء النهر: حين ثارت طخارستان وتمحرك السغد بين ٩٠-٩٢ هـ، ولا حين أغار خاقان حول ١١٩ هـ علي ما وراء النهر وخراسان وابتأس الناس بمكانه ولم يدر جند المسلمين ما يفعلون. فكان أهل صغانيان في هذا الموقف الأخير الحرج يشدون أزر الوالي ويتقهقرون معه كما تقدموا معه من قبل^(٤).

أما ملك شومان فإنه اغتر بنفسه وأبى إلا العصيان في المناسبة الأولى. فلما

(١) الطبري: ج ٩ ص ١٤٨ عام ١٣٣

(٢) ابن الأثير: ج ٤ ص ٣٤٢ عام ١٣٣

(٣) نفسه: ج ٤ ص ٢٣٠ عام ١١٩

(٤) نفسه: ج ٤ ص ٢٢٦ عام ١١٩

حورب قاتل حتي قتل . واستفادت بلاده للمسلمين من بعده استفادة لم يحوجهم قط إلى العودة^(١).

أما عن إقليم كش ونسف وبخارى والسغد ، فاتنا ، إذا صرفنا النظر عن العلاقات البسيرة بين ملوك هذه الناحية والعرب قبل عهد قتيبة ، وجدنا العرب في عهد هذا القائد يحاولون فتح هذه الناحية ويقصدون بخارى وهي أقرب المدينتين إليهم ، فستعصى عليهم استعصاءا شديدا ويُحصرون شهرين . وإنما نشير إلى حملة ٨٧ . ولكن العرب يعودون إلى منطقة بخارى مرة ثانية وثالثة ولا يلبثون بغيثهم ، وهي أخذ بخارى ، إلا في الحملة الرابعة سنة ٩٠ ، ولا يظفرون في هذه المرة أيضا إلا بعد حرب قاسية ، صبروا لها هذا العام خاصة كما صبروا في الأعوام الأخرى^(٢) . وعاونهم فيها نيزك صاحب باذغشان عبد جيفويه ، بينما كان الصفد يعاونون بخارى خده (واسمه وردان) . (ويذكر النص أيضا خاقان : وهو لقب مخصوص بملك الترك البعيدين ، وليس في سياق النص ما يرر تدخله بصفة قاطعة لأن النص يعتبر مصطربا مقتضبا).

فنية الفتح ظاهرة لا شك فيها محدودة بزمان معين ومنصبة على هذا الاقليم خاصة من أقاليم ما وراء النهر . وقد رأينا العرب يحجمون عن فتح بعض النواحي الأخرى أو يكتفون في بعضها بالولاء ويتصرفون على إقرار هيئتهم . وقد رأيناهم قبل عهد الفتح يقومون بالحملات المتباعدة غير المتلاحقة التي لا يراد منها إلا إثبات اليقظة والحذر وإظهار القوة . وها هم الآن يحوصون على التسلط على الطريق الحربى لمنع من يسلكه من الغزاة من تهديد أمن العرب .

وكان من نتيجة انهزام بخارى أن وقعت هيبة للمسلمين في قلوب الصفد فطلب

(١) نفسه : ج ٤ ص ١١٨ عام ٩١

(٢) نفسه : ج ٤ ص ١٠٧/١٠٩٤ ١١٠٤ ١١٣٦ : حملات ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠

ملكهم ، وكان يسمى طرخون ، أن يصلح على فدية . فأجيب إلى ذلك (١) .
واعتبر هذا الصلح تجديدا لما كان قبل من سلام بينه وبين المسلمين (٢) ، ولكن
دوره كان في حقيقة الأمر قريبا ، لأن زمن السلام كان من أصول السياسة القديمة
السابقة على قتيبة .

ولعل طرخون كان محتا حين سالم . والراجح أنه كان أنفذ من رعيته
وأشرفه بصيرة لأنه قدر من قوة الاسلام ومضاء عزوه ما لم يقدروا . ولكن أهل
سمرقند أخذتهم العزة واستضعفوه واتهموه بالخنوع والتهيب ، فعزلوه وولوا ابنه
غوزك سنة ٩١ (٣) . وكذلك اجترأ في نفس الوقت أهل شومان وكش ونسف
واستشفت البلاد عن حركة معارضة كالحركة الطخارية التي بدأت سنة ٩٠ واستمرت
سنة ٩١ . وكان لهذه الحركة أن تستفحل وأن يستطير شررها ، لولا يقظة المسلمين
وتطواف جيوشهم مرة واحدة بشومان وكش ونسف ، ولولا غزوهم سمرقند نفسها
سنة ٩٣ . فإنه لم يغب عنهم أن عزل طرخون كان تحديا .

فعاد المسلمون إلى مدينة الصفد ليردوها إلى الخلف وليجزوها على الفدر ،
والواقع أن قتيبة قال لجنده حين عزم على قصد سمرقند فجأة . « إن الصفد شاغرة
برجلها وقد تقضوا العهد الذي بيننا وصنعوا ما بلغكم » وقد عاون للمسلمين أهل
بخارى وأهل خوارزم ، وحاصر جميعهم سمرقند أشهر ، ونصبوا عليها المجانيق ، حتى
أحدثوا في سورها ثلثة ، فصالحهم غوزك ، وكان غوزك يظن أن الجند لا تقيم في
مدينته . ولهذا كان فقهاء الناس يقولون غدر قتيبة بسمرقند .

ولم يغب عن سمرقند استغاثتها بمن وراءها من الترك ، فان الصفد كتبوا إلى
ملك الشاش وخاقان وأخشا فرغانة ، ولا ندرى لم لم يستغيثوا أيضا بأفاشين

(١) نفسه : ج ٤ ص ١١٤ عام ٩٠

(٢) الطبري : ج ٧ ص ٦٩ عام ٩٠

(٣) ابن الاثير : ج ٤ ص ١١٨ عام ٩١

أشروسة لثم لهم الاستغاثة بكل من وراءهم. وقالوا «إن العرب إن ظفروا بنا أتوكم
بمثل ما أتونا به ، فانظروا لأنفسكم ، ومهما كان عندكم من قوة فابذلوها (١)
وتحركت النجدة ولكنها لم تصل إلى سمرقند ، وهزمت دونها شر هزيمة . وهكذا
كان السغد على يقين من نوايا العرب يعلمون أنهم يريدون فتح البلاد .

وإتبا خضع السغد للقوة ولم تستسلم قلوبهم ، ولهذا ظلوا يبدون من المقاومة ما
أقلق العرب ، ولكن السغد سالموا أول الأمر وسالمهم المسلمون ، فدعاهم عمر بن
عبد العزيز إلى الاسلام فيمن دعا من ملوك ما وراء النهر (٢) . فأسلم بعضهم ولم يحدد
المصادر هذا البعض . ولكن هذه الدعوة في ذاتها كانت مسالمة باعثة على الاطمئنان
والترخي في المقاومة . ولعل أهل سمرقند ظنوا كذلك أنهم يجدون من الخليفة
عمر سميعا عادلا ، فشكوا إليه احتلال سمرقند غدرا (٣) . ولعلهم لم يجدوا من
عدله متسعا يرضونه . ولم تلبث الأمور أن ساءت لأن الاحتلال الجديد جرح
اعتزاز السغد بأنفسهم . فأخذ السغد ينتهزون الفرص لتحرير أرضهم . ولم تكن
الفرص قليلة . فان الفتوح لم تكمد تم حتى كانت فتنة قتيبة . ثم تلا ذلك فتنة ابن
المهلب ثم ولي خراسان وال استضعفه الناس ، « فطمعت الترك ، فجمعهم خاقان
ووجههم إلى الصغد ، وعلي الترك كورصول » ، فأقبلوا حتى نزلوا حصون المسلمين فيما
وراء النهر (٤) ، فاضطر المسلمون أن يتراجعوا عنها إلى سمرقند (٥) . وهكذا نقض
السغد العهد ، وتعاونوا مع الخاقانية علي المسلمين ، ولجوا في النقض ، ولم يترددوا حين
توقعوا الهزيمة أن ينزحوا عن ديارهم إلى من وراءهم من الملوك . وظلت الحرب
قائمة بينهم هم ومن ساندتهم ، وخاصة خاقان ، وبين المسلمين إلى عام ١١٩ لم تكمد

(١) نفسه : ج ٤ ، ص ١٢٦ طام ٩٣

(٢) البلاذري : ص ٩٥

(٣) نفسه : ص ١١

(٤) ابن الاثير : ج ٤ ، ص ١٧٨ طام ١٠٢

(٥) نفسه : ج ٤ ، ص ١٧٩ طام ١٠٢

تنقطع إلا بالدعوة للإسلام مرة أخرى عام ١١٠ (١) وإلا بسياسة المطاولة وتجنب حرب الإبادة من جانب العرب (٢). ومع ذلك فإن المقاومة لم تنقطع انقطاعاً تاماً رسمياً إلا سنة ١٢٣ (٣). بعد ابتدائها بعشرين عاماً ، وبعد أن لقي المسلمون من شدة لا يصورها إلا ابتهاج الخليفة هشام عندما أتاه البريد بقتل خاقان ، وكان سبب السغد الأكبر ، أتاه رسول الوالي من خراسان بالنبا فلم يصدقه ، ثم قدم مبشر آخر « فوقف علي باب هشام وكبر ، فاجابه هشام بالتكبير ، فلما انتهى إليه أخبره بالفتح فسجد شكراً لله تعالى » .

وهكذا نجد الدولة الإسلامية تتبع مع هذه الناحية سياسة واضحة لاشك فيها ، ولا تنكص أمام ما تتطلبه هذه السياسة من جهود وأعمال حربية ، ولا تتورط في طريق العداوة إلى إيادة أعدائها العصاة وتخريب أرضهم : ولم يكن العرب يكبحون هذا العصيان بالسيف وحده ، ولكنهم كانوا يعرفون الطرائق السلمية السلمية التي تقوم مقام السيف . فانهم إن عدوا عزل السغد صاحبهم غدرا يستوجب عليه السغد العقاب : فانهم حرصوا من ناحية أخرى على أن يعزلوا بخارى خداه ليقبموا بخارى خداه آخر حدثاء « وقتلوا من يخاف أن يضاده » ، (٤) ليكون هذا الملك من صنائعهم .

ولم يقتصر العرب على هذه المناورات السلمية أو الشبهية بالسلمية بتعبير أدق ، فإن حامياتهم لم تلبث أن استقرت في نواحي الصغد وكش ونسف ، علي حين اكتفى العرب بإثبات هيبتهم وبالطاعة البعيدة في النواحي الأخرى ، فانهم حرصوا هنا علي تأييد سلطانتهم بالحاميات لأنهم وجدوا من وراء هذه البلاد من يعاونها

(١) نفسه : ج ٤ ص ٢٠٢/٢٠٥ عام ١١٠

(٢) نفسه : ج ٤ ص ١٧٩/١٨٠ عام ١٠٢

(٣) نفسه : ج ٤ ص ٢٥٠ عام ١٢٣

(٤) نفسه : ج ٤ ص ١١٨ عام ٩٩

وينازع العرب عليها، فاتخذ العرب هنا قصر الباهلي (١) وقصر الريح (٢) وكرجة (٣). ومن وراء هذا الخط الدفاعي الواقع وراء نهر الصغد أقيم خط آخر من الحاميات المتحصنة مؤلف من سمرقند والدبوسية وبخارى، ثم حصن آخر من وراء هذه الحصون كلها هو الباب الحديد (٤) المتحكم في طريق ترمذ - سمرقند ماراً بكش. وكانت حامية الدبوسية (٥) تبلغ عشرة آلاف مقاتل في سنة ١١٠. ولم تكن حامية سمرقند

(١) قصر الباهلي : هوجم سنة ١٠٢ وكان به حامية عربية ، منهم جماعة من إهالة في مائة أهل ينت بذراهم وكانوا ساعة الهجوم ينتظرون المدد من سمرقند ، فلما ارتدوا كان ارتدادهم الى سمرقند ، ولهذا يجب أن يوضع قصر الباهلي في شرقي سمرقند على مسافة بعيدة بعض الشيء لا تقل عن اربع فراسخ كما يدل السرد (ابن الاثير - ج ٤ ص ١٧٨/٩ عام ١٠٢) ولم يورد لستراييج في كتابه لهذا الحصن ذكرا.

(٢) قصر الريح على فرسخين من الدبوسية وقد نزلت به بعض الفرزات في طريقها الى خجندة (ابن الاثير : ج ٤ ص ١٨٤ عام ١٠٤ البلاذري ص ٤١٧) ولم يورد لستراييج في كتابه لهذا الحصن ذكرا.

(٣) كرجه : من أعظم بلاد خراسان كما يقول ابن الاثير وليس المقصود من هذا التعريف أن الحصن يقع في إقليم خراسان نفسه . وإنما هي فيما وراء النهر لأن حاميتهما تراجمت الي الدبوسية وسمرقند ، ولست أدري أين يجب وضع الحصن بالضبط ، ولكن يكفي في الدلالة على أهميته أن حاميته ثبتت للحصار ٥٨ يوما . وأنها لم تسق ابدا ٣٥ يوما (ابن الاثير : ج ٤ ص ٢٠٤/٥ عام ١١٠) ولا يورد لستراييج لهذا الحصن ذكرا ، وقد نستطيع أن نعرض قیاسا على ما قال لستراييج عن مدينة بكرمان ، أن كرجه كان حصنا تجاريا على الحدود وأت اسمه جاء من اليونانية ΚΟΥΜΕΡΚΙ ولكن فرض لا يؤيده شيء اطلاقا ، الا التوافق الصوتي بين اللفظتين وهو توافق لا يستر حجة حاسمة ما لم نعرف أصله التاريخي .

(٤) الباب الحديد وترسم الكلمة بالحاء المهملة في الطبري وإلجيم المعجمة في ابن الاثير وليس في السرد ما يحدد المكان (ابن الاثير : ج ٤ ص ٢٤٣ عام ١٢١) ، الا أن الوصول اليه من ناحية بلخ ، وهنا يسعنا بالمدد لستراييج ومصادره الجغرافية ، فيقول ان المدينة تسمى بالفارسية دربند آهنين وانها تقع في وادي عميق منحوت في أرض مرتفعة فهي ممر ذو أهمية استراتيجية (Lestrangle ص ٤٤١/٢) وكان هذا المر طريق التجارة أيام تیمور ، وقد أظهر قصر حرصه على أمان هذا الطريق ففزا منه سنة ١٢١ . ومعنى هذا أن هذه الناحية كانت قاعدة للغزو .

(٥) ابن الاثير : ج ٤ ص ٢٠٥ عام ١١٠ .

أقل منها عددا . فان ندبة خرجت بن حاميتها في بعض الحروب بلغت ٤ آلاف (١) وكانت بخاري قاعدة حرية تقيم فيها حامية كبيرة من جند المسلمين . وكان الباب الحديد طريقا حريا قريبا إلى سمرقند .

ومعنى هذا أن إقليم بخارى والصغد بما فيه كاش ونسف إلى الباب الحديد، كان أهم منطقة دفاعية . وتلك حقيقة لا سبيل إلى الشك فيها ولا إلى إهمالها . أما الممالك التي تجاور هذا الاقليم عن يمين وشمال فهي خوارزم من شمال وصغانيان وشومان والختل وطرخارستان من يمين ، وهي أقاليم لزم بعضها الوفاء مثل خوارزم وصغانيان وشومان ، أو أقاليم لم تنل من العرب الاهتمام الأول فلم يسارعوا إلى وضع حاميات فيها ولم ينشطوا للغزو من نواحيها لأن الخطر منها إقليمي يسير ، وهكذا ترى المسلمين يعاملون ملوك هذه النواحي معاملة مختلفة، ويجعلون لكل ناحية موقفا شرعيا خاصا يتفاوت بتفاوت المصالح التي يريدون تحقيقها فهؤلاء أهل عهد وهؤلاء أهل موادة ، وأولئك أهل ذمة . ولم يزيدون علي ذلك ، إذا كان غرضهم قاصر الحلف وحماية الطريق الاستراتيجي ؟

سياسة إشراك الترك في حماية الحدود

ولم تتبع الدولة الاسلامية مع هؤلاء الملوك سياسة الحرب التي اتبعتها مع الروم في غير هواده ، فان مثل هذه السياسة الثغالية تفترض أن لا سبيل للتفاهم مع العدو إما لتمسكه بدينه تمسكا لا مطمع فيه ، وإما لثبات دعائم حكومته ثباتا لا يطعم العرب في تقويضها . وإنما اتبع المسلمون هنا إلى جانب السياسة الحربية سياسة التعاون :

(١) ابن الاثير : ج ٤ ص ١٧٨ ط ١٠٢

لأنهم أحسوا إحساسا داخليا غامضا أن دين الترك ضعيف أمام الاسلام ، ولأنهم رأوا أن الاستيلاء على دول الترك أمر ممكن . ويظهر هذا التعاون في إشراك الترك في الجهاد إشرافا مستمرا يدل باستمراره على أنه كان سياسة مرسومة . وقد كان الروم كذلك يشركون جيرانهم الطبيعيين على الحرب في حروبهم : لكيلا يجرموهم من ميل طبيعي جبلوا عليه ، دون نظر إلى دينهم ولا إلى جنسهم ، فإن من الشعوب من لا يتنازل عن الحرب في سهولة ومن يسدد إليك سهامه إن لم توجهها وجهة أخرى : لتكون حربا على غيرك لا عليك ، والراجح أن هذه الحقيقة لم تنف عن فطنة العرب ، فأشركوا الترك في غزواتهم ضد الترك ، واستغلوا بهذا سيوفا كانت جديرة بأن ترفع على رؤوسهم . وتخففوا من بعض الأعباء .

والواقع مع ذلك أن هذا الاشراف كان ضروريا لأن العبء الملقى على الجيش الاسلامي كان فوق ما يحتمل . فان المسلمين لم يكونوا يجرأون على عبور النهر إلا في عدد كبير ، فجرت عادة ولاية خراسان أن لا يضعوا أقدامهم على الضفة اليمنى لنهر جيحون إلا في خمسين ألفا من المقاتلة ، وجرت عاداتهم كذلك أن لا يمر عام بدون غزاة (١) إلا أن يمنعهم من ذلك مانع جسم . لا يرون بدا من هذا الغزو المستمر في العدد الكثير . وهم مع ذلك إنما يردون أرضا صالح أهلها ووقعت هيبة الدولة في هموسهم وقامت حاميات المسلمين في حصونهم . وذلك أن المسلمين كانوا بازاء عدو حرب لدود لا تنفذ حيله ولا تبارى مهارته ، فقد كان قدامى الجند يقولون « إن الترك ليسوا كغيرهم ، لا يلقونك صفا ولا زحفا .. وإنما يظهرون فجأة كأنما نبتوا من الأرض وجاءوا من كل وجه » . ولهذا كان من حسن الرأي أن « صاحب

(١) في سنة ١٠٩ (ابن الأثير ج ٤ ص ٢٠٠) الحكيم بن عوانة الكلابي أقام صيفية لم يفرغ، فعني المؤرخون بتسجيل ذلك . وغير الناس سعيد خديبة بأنه ترك الغزو سنة ١٠٢ (ابن الأثير ج ٤ ص ١٧٩) . وكذلك لاموا عاملا لم يفرغ عام ١١٧ (ابن الأثير ج ٤ ص ٢٢١) .

خراسان لا يعبر النهر — جيحون — في أقل من خمين ألفاً^(١) .

وقد كان من أتع الأشياء إذن أن يشرك المسلمون الترك . فهم أعرف بالأرض وبحيل الترك ولغاتهم وطبائعهم .

ولكن السبب القوي للاشراك فيما اعتقد : هو أن المسلمين كانوا يؤثرون أن يسالموا هؤلاء الناس وأن يستميلوهم إلى جانبهم وأن يقيموا بين جندهم جميعاً أخوة خيرية ، ويتوقعون من وراء هذه الوسائل خيراً للإسلام نفسه ، وما دامت الخطة تؤدي إلى عز الإسلام فهي الخطة التي كان يحرص عليها أصحاب السياسة في ذلك الزمن . فقد كان « إعزاز الإسلام » صيغة من الصيغ التي تعبر عن أهداف السياسة في ذلك الوقت . فترددت في كتب المؤرخين وقصائد الشعراء .

فلم يكن العرب ياجأون إلى السيف إلا حين تضيق بهم الحيل ، فاذا استعملوا السيف حرصوا على أن لا يبيدوا العدو .

فقد آثر فتية طريقة الخلف : مثل حلفه مع يترك على ألا يدخل أرضه (ابن الأثير : ج ٤ ، ص ١٠٧ عام ٨٧) وآثر فتية اصطناع الملوك (فلك حمدتاً على بخاري : نفسه : ج ٤ ، ص ١١٨ سنة ٩١) واستغل كذلك الحصومات الداخلية ، فانتفع من الحصومة بين ملك صفانيان وملك شومان ، واستغل الحصومة بين خوارزمشاه و منافسيه^(٢) ، وآثر المفاوضة مع العصابة ليستجلبهم باللين قبل أن يجبههم بالحرب : كما فعل مع ملك شومان حين عصى : فأرسل إليه رسولين فقتل أحدهم ونجا الثاني^(٣) فلم يقضب ولم يجمح ، وإنما أرسل أخاه ليستميل الملك ، وهكذا

(١) ابن الأثير : ج ٤ ، ص ٢٠٩ عام ١١٢

(٢) نفسه : ج ٤ ، ص ١٢٦/١٢٥ عام ٩٣

(٣) نفسه : ج ٤ ، ص ١١٨ عام ٩١

فعل ولاية الثغر بعد قتيبة ، وقد كان من الجند من يحب حز السيوف وإحكام القتال والنيل من العدو ، ويستضعف هذه السياسة العليا الحكيمة التي يتبعها ولاية خراسان ، ومن ذلك أن أحد ولاة خراسان أمر الجند بالإبقاء على الصفد وذكرهم بما يكون بين قبائلهم أحيانا وبين الخلافة من حروب لم تصل إلى الإبادة . قال : لا تتبعوهم فإن السغد بستان أمير المؤمنين ، وقد حزمتموهم ، أتريدون بوارهم ؟ وقد قاتلم بأهل العراق الخلفاء غير مرة فهل أبادوكم . أما الجند فكانوا لا يرون إلا أن الثوار « عقيرة الله » (١) .

وإنما نشير إلى سعيد خدينة وإلى خراسان وسياسته اللينة وجابه على نفسه لذلك سوء الذكر بين الناس . فإن الذكر الحسن والصيت البعيد كان من نصيب الوالي المظفر الذي تدرغزواته الثروة على الجند . أما هذا : فإنه كان يرد الغنيمة ويعاقب السرية إن بالغت في الحرب . وكذلك أثر بعض الولاة حبا في السلم أن يقبلوا من شروط الصلح مع الترك ما لم يكن يقبله المسلمون عادة من عدم عقاب المرتد مثلا . وكذلك لم يتمسك الولاة بالسلطان التام في كل مكان إلا بالقدر الذي يضمن أمان الثغر . وقبلوا كما رأينا أن يتفاوت سلطانهم على ما وراء النهر فهم قد أدر كوا أن ظل السلطان يتقل على الشعوب . ولهذا كله نعتقد أن المسلمين إنما أشركوا الترك في حربهم إيثارا للسائلة وطمعا في إعزاز الاسلام عن هذا الطريق . فلم يتشددوا في معاملة الترك ولم يكلفوهم ما لا يطيقون من تطلق طبيعتهم المجبولة على الحرب ، ولم يأخذوهم بشرائط الجزية الدقيقة ما داموا يستطيعون أن يستعوضوا عنها بما تبذله لهم سيوفهم وبعض إتاواتهم ، ولم يأخذوهم بالاسلام الذي لا يعرف الزدة ما دام الترك لا يفرقون بين الاسلام والطاعة : إن ذهب أحدهما تبعه الآخر ، ولعلمهم وثقوا بالزمن وانتظروا من السائلة فوق ما كان لهم أن ينتظروا من السيف .

(١) ابن الأثير : ج ٤ ، ص ١٧٩ عام ١٠٢

وقد بدأت سياسة إشراك الترك في الجهاد منذ ابتداء فتوح ما وراء النهر تقريبا . كأنها كانت أمراً مقرراً من قبل ، والزاجح أنها كانت كذلك : لأننا أشرنا إلى أن العرب عرفوا الترك معرفة دقيقة قبل أن يفتحوا أرضهم .

فإن صاحب باذغشان وكان يسمى نيزك اشترك سنة ٨٨ في حصار نومشكت (وهي بخاري القديمة) وأبلى . وهو أول إشراك تسجله المصادر (١) . ثم اشترك نيزك في حرب بخاري سنة ٩٠ (٢) ثم خلع مقفله من هذه الغزوة : لأنه رأى من المسلمين ما أفرعه (٣) . فلما كان ببلخ نزل علي التوبهار فصلي ، ولا نظن أنه كان مسلماً ، والدليل على ذلك أن قتيبة استنزه بأمان بعد عصيانه ثم لم يرع الأمان فكان الناس يرون أنه غدر به (٤) ، ولو كان ارتد لم يكن له أمان .

ثم اشترك مع قتيبة «أهل خوارزم وبخاري» في حرب الصفد سنة ٩٣ ، وقد روى أن قتيبة اشترط على الصفد أن يمدوه بثلاثين ألف فارس وقيل بمائة (٥) ، ولا تتمسك بالعدد وإنما تتمسك بنوع الشرط ، فلما كانت السنة التالية وجدنا قتيبة يفرض على أهل بخاري وكش ونسف وخوارزم عشرين ألف مقاتل ، ويسير بهم نحو الشاش وفرغانة (٦) . وكان ذلك سياسة ثابتة اتبعتها قتيبة : فإنه كان يستخدم العجم ، ويوضح ذلك من قول ابن الأثير أنه «كان يجعل الطلائع فرسان الناس وأشرافهم ومعهم من العجم من يستنصحه» . وقد كان من أشرف العجم من يرعى حق الفروسية ويقدم الخلف ، فإن قوماً من أبناء ملوك الصفد كانوا مع قتيبة

(١) من الخائز ان يكون هذا الاشتراك واشترك سنة ٩٠ شيئاً واحداً ، لان ابن الاثير يضم فتح بخاري في هذه السنة او في سنة ٩٠ (ابن الاثير : ج ٤ ص ١٠٩ عام ٨٨)

(٢) نفسه : ج ٤ ص ١١٤ عام ٩٠

(٣) نفسه

(٤) نفسه : ج ٤ ص ١١٥ عام ٩٠

(٥) ابن الاثير : ج ٤ ص ١٢٧ عام ٩٣

(٦) نفسه : ج ٤ ص ١٣١ عام ٩٤

حين خلع سليمان واضطرب عليه الأمر فأنفوا من خذلانه ، ولم يقولوا كما قال غيرهم :
إن هذا يوم خذلان قتيبة لسوء بلائه عند العجم (١) . ولكن استخدام الأتراك
كان في الحقيقة مقصورا على الغزو ، وليس تأييدهم قتيبة هنا إلا نتيجة لموقف شاذ
غلبت فيه روح الفروسية .

ونجد الترك يشتركون في الغزو بعد ذلك التاريخ بضع سنين ، فان ترك خاقان
ملك قى ، ولعله من ملوك السغد ، عرض معونته حين هاجم الترك والسغد قصر
الباهلى سنة ١٠٢ وانضم إلى المسلمين مع ٣٠٠ من مقاتليه (٢) . ونلاحظ أن طبيعة
الاستكشاف كانت مؤلفة من رجلين من العرب ورجل من العجم . ونجد أثر هذا
الاشتراك والأخوة الحربية حين نجد عطاء السغد الأسرى ينزلون على الذين
يعرفونهم من جند المسلمين (٣) . ونجد سنة ١٠٤ خوارزمشاه وصاحب آخرون
وشومان يجارون السغد مع والى خراسان (الحرشى) (٤) ، ونجد الصغانيان يخرجون
للغزو مع المسلمين (٥) .

ومع ذلك فان الترك لم يثالوا ثقة العرب كاملة . ولهذا كان يندر أن يطلب
الولاية إليهم الاشتراك في الحرب في سنوات الاضطراب ، لا نستنى إلا أهل
الصغانيان وصغان خداه ، فقد أعانوا والى خراسان بينما كان خاقان غالبا على
سمرقند ونواحها يهاجم العرب ويطردهم (٦) ، وصبروا هم وجماعة من الأعاجم لا
نعرف جنسيتهم (٧) ، ولعل هؤلاء الأعاجم من سكان المدن الواقعة بين المرغاب

(١) البلاذرى : ص ٤١٣

(٢) ابن الاثير : ج ٤ ص ١٧٨ عام ١٠٢

(٣) نفسه : ج ٤ ص ١٨٥ عام ١٠٤

(٤) نفسه : ج ٤ ص ١٨٦ عام ١٠٤

(٥) نفسه : ج ٤ ص ١٩٤ عام ١٠٦

(٦) نفسه : ج ٤ ص ٢٢٦ عام ١١٩

(٧) نفسه : ج ٤ ص ٢٢٧ عام ١١٩

ويجئون مثل الجوزجان ، فانهم كانوا يؤلفون قسما من ميمنة والى خراسان حين صاف خاقان (١) دون أن ينسبوا إلى قبيلة يولاء .

فلما مضت الأزيمة وولي نصر غزا الشاش ومعه بخارى خداه في أهل بخارى ، ومعه أهل سمرقند وكش ونسف ، وهم عشرون ألفا . أما هذا الرقم فيذكرنا بالعشرين ألفا الذين فرضهم قتيبة على أهل هذه المدن ما عدا سمرقند . ولا نظن ذلك كان عددا تمليديا ، ولكنه عدد لا نظن المسلمين تجاوزوه حين استعانوا بالترك لتكون الكثرة عربية ، وعلى أساس أن الجيش العربي يقارب عادة خمسين ألفا . أما الذين صحبوا نصرا فهم من الترك لا من أجناد المسلمين ، والتعبير القديم يفرق بين الصنفين فيقول : أهل سمرقند مثلا إذا قصد الترك ، ويقول : جند سمرقند إذا قصد الحامية العربية بها (٢) . ومن العقول إذن أن يكون هذا العدد من الترك مسلما غازيا مع العرب طلبا للجهاد وحبا في إشباع الفروسية ، على حين أن الراجح أن الذين غزوا أيام قتيبة لم يكونوا مسلمين ، ولكن النصوص تلزم الصمت في الحالتين : وهو صمت تؤوله نحن حسب الظروف المحيطة ، وقد تغيرت الظروف تغيرا شديدا . ويتضح ذلك حين نعلم مثلا أنه كان لبخاري خداه قصر في مرو (٣) نظنه كان يقيم فيه أكثر مما كان يقيم في بخاري ليكون أقرب للولاء وأبعد عن الريبة .

ولكن ترك ما وراء النهر إن فقدوا استقلالهم فانهم لم يقتدوا شخصيتهم ولا فروسيتهم . وذلك أنهم اتحدوا مع عرب ما وراء النهر من مضر وربيعة واليمن ، وتحالفوا على قتال للمسودة (٤) . ولا مفر أن نلاحظ أن في هذا الموقف وفاة للعرب المستقرين فيما وراء النهر خاصة ، واحتفاظا بالعداوة القديمة بين إيران وطوران .

(١) نفسه : ج ٤ ص ٢٢٨ عام ١١٩

(٢) ابن الاثير : ج ٤ ص ٢٤٣ عام ١٢١

(٣) نفسه : ج ٤ ص ٣١٠ عام ١٣٠

(٤) نفسه : ج ٤ ص ٣١٢ عام ١٣٠

ولهذا لم يكن الاتصال بين رجال المسودة في خراسان وبين ملوك ما وراء النهر اتصالاً ودياً . على حين كان التفاهم تاماً بينهم وبين رجال الأمويين ، فإنا نجد أبا داود يغزو الختل ويلجئهم إلى الهرب ، ويغزو كمش ليعتقل ملكها وهو سامع مطيع ، ويقتل أناساً من أهل الصفد وبخارى (١) .

ولا يلبث الأمر أن يستتب : فنجد ترك طخارستان مع جند المنصور يحاربون أستاذيس (٢) . فإذا كانت أيام الرشيد وجدنا حامية صفدية تحارب عام ١٨٠ لافي ما وراء النهر غازية مجاهدة ، ولكن مقبلة لاقرار النظام وقع الفتن في مدينة زرنج أى في أرض بعيدة عن الأرض الأصلية وفي أحوال تخالف تمام المخالفة . الأحوال الأولى التي أقرها قتيبة ، ولا شك أن هذه الحقيقة تعتبر نقطة تحول كبير في السياسة العامة . وهي على أي حال أكبر أهمية في تاريخ ما وراء النهر ، لأنها تدل على أنه أصبح عضواً في جسم الدولة غير خارج عنه (٣) .

ولا نستطيع أن نعرف إن كانت هذه الواقعة أول واقعة من نوعها ، لأن سوقها في كتب التاريخ جاء عفواً دون تمهيد خاص ودون تعليق من المؤرخين ، كأنها شيء لم يجيبهم في ذلك العصر الذي استخدم فيه العجم وأنيحت لهم المكافحة الأولى في امبراطورية ذات صفة إسلامية لا عربية ، والراجح أن الواقعة جاءت وقد تهيأ لها الجو فلم ير فيها أحد شذوذاً : لأن جند الترك كانوا عجباً مسلمين شأنهم شأن الفرس ، وكنا نحب أن نؤيد هذه الواقعة بأشباها غير أن الأشباه نادرة . ولكن الواقعة على أي حال بدت طبيعية يوم وقعت ، ولم يكن شيء يمنع من تكرارها .

(١) نفسه : ج ٤ ص ٣٤٢ عام ١٣٤

(٢) نفسه : ج ٥ ص ٢٩/٢٨ عام ١٥٠

(٣) نفسه : ج ٥ ص ١٠٢ عام ١٨٠

ثم كان تحول جديد أيام المأمون في إشراك الترك في حروب المسلمين ، وهو أن المأمون اتخذ سياسة جديدة : هي الدعوة إلى الاسلام والترغيب في خدمة الجيش في نفس الوقت ، وقد كانت هذه السياسة معروفة قديما . فان قتيبة حين استخدم الترك كان بطبيعة الحال يتمنى إسلامهم ، غير أن مثل هذا الاسلام يتخذ في أعيننا ، ان سلمنا به ، لون الخلف والدخول في تيار السياسة العربية ، أما الجديد في هذه السياسة المأمونية : فهو أن الترك كانوا يدخلون الجيش ويحاربون في إقليمهم وغير إقليمهم ، وكان هذا الاسلام الحديث يقربهم إلى المرتزقة أكثر مما يقربهم إلى الجند المسلمين الذين قدم بهم العهد في ظل الاسلام والدولة الاسلامية . وكان يقوم بهذه الدعوة إلى الاسلام والجنديّة : رسل دعاة فارضون ، يستميلون الناس بالفريضة لهم في الديوان . وقد كانت الدعوة للاسلام قديمة ، ولكنها كانت مستقلة كل الاستقلال عن الجنديّة . والرجع في وصف هذه السياسة أربعة أسطر رواها البلاذري ، قال : « وكان المأمون رحمه الله يكتب إلى عماله في خراسان في غزو من لم يكن على الطاعة والاسلام من أهل ما وراء النهر ويوجه رسله فيفرضون لمن رغب في الديوان وأراد الفريضة من أهل تلك النواحي وأبناء ملوكهم ويستميلهم بالزعة ، فاذا وردوا بانه شرفهم وأسنى صلاتهم وأرزاقيهم . » (ص ٤٢٠ بلاذري) وثبت هذا النص ثبوتاً جازماً أن المأمون هو أب هذه السياسة التركيّة .

والأسير الشائع أن الأفشين التركي إنما علانجمة أيام المعتصم (كلف بحرب بابل سنة ٢٢١) (١) . ولكننا يجب أن نعلم أن الأفشين « أظهر الاسلام وشخص إلى مدينة السلام » أيام المأمون (٢) ، وأنه كان سنة ٢١٧ قائداً بمصر (٣) بعد أن كان قائداً ببرقة سنة ٢١٦ (٤) .

(١) ابن الاثير : ج ٥ ص ٢٣٤ ٢٢١

(٢) البلاذري : ص ٤١٩

(٣) ابن الاثير : ج ٥ ص ٢٢١ عام ٢١٧

(٤) نفسه : ج ٥ ص ٢٢٠ عام ٢١٦

ولا بد أن نذكر كذلك أن أشناسا التركي كان من قواد المأمون قبل أن يكون من قواد المعتصم ، وأنه كان قائدا من قواده يفزو معه الثغور الرومية (١) .

وإذا أردنا أن نحدد الوقت الذي أوغل فيه المأمون في طريق هذه السياسة : فالراجح أنه إنما اتخذ سبيلها بعد ظفروه بنصر بن شيبان العقيلي سنة ٢٠٩ . وإنزاله قيسا « من ظهور خيولها » (٢) وسويظنه بالعرب . وقد كان في هذا الوقت أيضا محتاجا إلى أن يحاط للخلافة من الفرس ونزعهم القومية الجامعة بعد أن رأى في هذه السنة نفسها طاهر بن الحسين يملك من أمر خراسان وتصريف أمورها وتمثيل قوميتها ما محدثه بأن يستقل بأمرها ، فلم ير المأمون بدا من أن ينهض بالترك ليتنافس الفرس والترك في إرضائه ، وليشغل الفرس عن الخلافة بأمر ما وراء النهر . وقد كان من طرق الخلافة في الضغط السياسي على خراسان قديما أن تضطرم إلى الحذر من الحدود الشرقية .

أما المعتصم الذي جرى القول بأنه أول من استخدم الاتراك حتى قرن اسمه بهم : فإنه لم يكن في حقيقة الأمر إلا التابع لسياسة افتتحها غيره فأنت نتائجها على يديه ، وقبل هو هذه النتيجة كما قبل تلك السياسة ، ولهذا يقول البلاذري « ثم استخلف المعتصم بالله فكان علي مثل ذلك (يعني من سياسة المأمون) حتى صار جل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر : من السغد والفراغة والأشروسنة وأهل الشاش وغيرهم ، وحضر ملوكهم ببابه وغلب الاسلام على من هناك » (٣) وهذا نص يدل على شيئين : الأول أن شهود عسكره كان جلهم من الترك ، وشهود العسكر : هم الجنود الذين يستخدمون في العراق بالذات والذين يرسلون بأمر الخليفة إلى حيث يشاء الخليفة . ولكنهم يعتبرون أين كانوا جيش العراق ، وهذا النص

(١) نفسه : ج ٥ ص ٢١٩ عام ٢٢٥

(٢) نفسه : ج ٥ ص ٢٢٧ عام ٢١٨

(٣) البلاذري : ص ٤٣٠

هام لأنه يدل علي تنبه المؤرخين إلي وقوع شيء جديد وهو استخدام الترك في قلب العالم الاسلامي . وقد رأينا أن الترك كانوا يستخدمون أولاً في ثغر الترك ثم أصبحوا يستخدمون في بعض نواحي خراسان ، إلى أن استخدمتهم الخلافة في العراق ووجهتهم إلى حيث شاءت من الثغور الرومية مثلاً ثم إلى جزيرة العرب نفسها ، موثلاً العروبة الأول ومهد الاسلام . وهو تدرج في استخدام الترك أسرعت خطاه أيام العباسيين بوجه خاص ، وأيام أن غلب الاسلام علي أهل البلاد المغلوبة . والشيء الهام الثاني الذي يستخلص من النص أن غلبة الدين علي أهل هذه البلاد جاء نتيجة لهذا الاستخدام وثمره من ثماره ، لأن النص حين ذكر استخدام الترك عطف عليه العبارة التي لا بأس من تكرارها « وحضر ملوكهم ببابه وغلب الاسلام علي من هناك » .

ونحن مع ذلك نستطيع أن نجد القرائن الكثيرة علي أن إسلام الجند الترك لم يكن في الحقيقة أول الأمر إلا قشرة سطحية انطبعت فوق التراث التركي القديم . من هذه القرائن اتهام الأفيشين بالزندقة ، ومنها احتفاظ الجند بأسمائهم التركية غير المألوفة ، فقد رووا أن الأفيشين في بعض حروبه أراد أن يمتحن الصيادلة الذين يتبعون الجيش ، فأتي بورق وكتب عليه أسماء الجند الأشروسنية ، وبعث به إلى الصيادلة فلم يعترف أكثرهم بجهلهم الأدوية ، وبعثوا ما أرادوا منها (١) . ولا تقف عند القصة وإنما تقف عند هذه الأسماء الأشروسنية التي تمسك بها أصحابها ولم يتركوها بالاسلام كما فعل سائر الناس من قبلهم ومن بعدهم .

والواقع أن القيادة الحربية في عهد المعتصم كانت إلى الأتراك ، فبرزت أسماء تركية ملأت العالم الاسلامي وعظمت هيبتها مثل الأفيشين (٢) وأشناس (٣) ومنجكور

(١) ابن العمري : تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٨٩٠ ص ٢٤٤

(٢) ابن الاثير : ج ٥ ص ٢٣٤ ، ٢٣٩ ، عام ٢٢٠

(٣) نفسه : ج ٥ ص ٢٤٧ ، عام ٢٢٣

قراية الأفشين (١) وبغا الكبير وأواجن الأشروسني (٢) وبشير التركي (٣) وبخاري خداه وكلهم ترك فيهم من الصفد وأهل فرغانة وأشروسنة وغيرهم .

من كل هذا نرى أن السياسة التي افترضها المأمون وسار عليها المعتصم كانت تجنيد الأتراك وإدخالهم في الاسلام عن طريق هذا التجنيد ، وليس يعنينا أن نسين قصد المأمون : أكان حاجته إلى الجنند بالذات ، أم كان قصده إلى ما ينشأ عن هذا التجنيد من الدخول في الاسلام ، لأن الأمرين تحققا له ، وكان أولها طريقا للآخر ، وكان كلاهما عنصرا من عناصر السياسة الاسلامية التقليدية منذ قتيبة ، وسنرى فيما بعد كيف نشر الخلفاء الاسلام فيما وراء النهر .

ولكن الترك دخلوا في بلاط الخلفاء قبل أن يدخلوا في جيوشهم ، ولعل أول من أدخلهم في البلاط الخليفة المنصور ، فانا نجد زهيراً التركي وأبنا له علي همدان مخلصا للخليفة يقتل بأمره رجلا من دعاة أبي مسلم . ونجد في حرس هذا الخليفة نفسه شعيب بن واچ (٤) . ثم أدخلهم الخليفة الرشيد في بلاطه كذلك ، ونحن نعرف خادمه خاقان الذي خدمه ثم ابنتي لنفسه دارا بطرسوس دفن فيها للمأمون بعد (٥) . ونسمع عن أخشيد الخادم ، خادم الرشيد (٦) ، ونعرف كذلك فرجاً الرخجى وكان مملوكا لبنت الرشيد ، فولاه الرشيد الأهواز ، ولكن مثل فرج أسر وهو فتى صغير (٧) ، وتربي تربية إسلامية حتى رفعه الرشيد «فوق قدره» (٨)

(١) نفسه : ج ٥ ص ٢٥٧ عام ٢٢٤

(٢) نفسه : ج ٥ ص ٢٣٧ عام ٢٢٩ عن بغا ثم ص ٢٦٠ عام ٢٢٥ عن اواجن

(٣) نفسه : ج ٥ ص ٢٤٢ عام ٢٢٢

(٤) نفسه : ج ٤ ص ٣٥٤ عام ١٣٧

(٥) نفسه : ج ٥ ص ٢٢٧ عام ٢١٨

(٦) الجهتياري : كتاب الوزراء والكتابات ، القاهرة ١٩٣٨ ص ٢٦٤ / ٥

(٧) نفسه : ص ٢٧٠ ، ٢٧١

(٨) نفسه : ص ٢٧١

ليكون صنيعته وآمن عنده . ووجود أمثال فرج كثير معروف قبل عصر الرشيد مثل حماد التركي (١) أيام المنصور ، ولكنهم لم يبلغوا درجة الخدمة عند الخلفاء إلا في عهد الرشيد . وهي درجة تستمد قوتها من القرب من الخلفاء أكثر مما تستمد قوتها من اختصاص أصحابها . ولتعد إلى إشراف الترك في حروب المسلمين وأنه كان مبدءاً سارت عليه الدولة منذ فتح ما وراء النهر ثم توسعوا فيه شيئاً فشيئاً حتى أصبح الترك جند الدولة ، وهو دور هام في حياة الدولة الإسلامية فتحه لهم الخلفاء مدة طويلة وحمله الترك أيام المأمون والمعتصم وواصلوا القيام به قروناً طويلة مجيدة بدون انقطاع إذا استثنينا العهد البويهي .

وقد تجاوزت الخلافة في أثناء هذا الإشراف السنة الفقهية ، فاستخدمتهم أيام فنية قبل أن يدخلوا الإسلام على الأرجح أو بعد أن دخلوه دخولاً شكلياً ، واستخدمتهم أيام المأمون والمعتصم ولما يتأصل إسلامهم أو يقدم . ولا بد لنا حين نسجل هذه الملاحظات أن نلفظ إلى أن رجال السياسة كانوا أكثر مرونة من السنة الفقهية ابتغاء المنافع السياسية التي تتحقق بهذه المرونة ، ولم تكن تلك المرونة قاصرة على المشاركة . فإن المغاربة لم يكونوا أقل مرونة . فإن عامل الأندلس عاهد أهل قرقسونة حين فتحها على شروط : منها أن « يلتزموا بأحكام الذمة من محاربة من حاربه المسلمون ومسالمة من سالموه » وكان أهل قرقسونة مسيحيين (٢) .

وقد كانت الشعوب البربرية المجاورة للإمبراطوريات الكبيرة منذ القدم تتحجب الإشراف في الحروب حيث يتيسر لها هذا الإشراف ، وتعتبره رمزا لسيادتها وكانت الإمبراطورية الرومانية تقبلهم وتشرعهم في الغزو ، وهكذا فعل الأكاسرة وأباطرة الروم وغيرهم . وهكذا فعل العرب مع الترك وغيرهم مثل الجراجمة

(١) نفسه : ص ١٣٤

(٢) ابن الأثير : ج ٤ ص ١٩٧ عام ١٠٧

في آسيا الصغرى .

وقد تجاوزت الخلافة العباسية في سبيل هذا الاشرار أو تخلت راضية وكارهة ، أو راضية أولا وكارهة أخيرا ، عن مبدأ العروبة . وجعلت الدولة إسلامية لا عربية ، يقوم بالدفاع عنها من يهيا لهم ذلك الدفاع من رعايا المسلمين دون نظر إلى أجناسهم .

* * *

— ٤ —

السياسة الدينية

لا يزال التجانس الفكري يقرب بين الشعوب ، وقد كانت الشعوب المتحضرة تكسر حدة جيرانها البرابرة عن طريقين : طريق السيف ، وطريق إدخال الشعب البربري في الحضارة . وكان الدين الواحد يقرب بين الأجناس المختلفة وكان نشر الدين بين أهل الحدود المهددة بمثابة درع حصين . وجرى الرومان والروم والعرب ودول العصور الوسطى على هذه السياسة .

كانت هذه السياسة ممكنة بالقياس إلى الترك أكثر من إمكانها بالقياس إلى الروم ، لأن دين الترك يختلف عن دين الروم في قدرته على الاحتفاظ بكيانه أمام الاسلام ، كان دين الترك الوثني ضعيفا كباقي الديانات الوثنية التي ابتلعها الاسلام أيام نشأته في جزيرة العرب ، علي حين غص حلقه بقبايل قليلة من اليهود والنصارى ، فدين الترك قليل الحصانة لم يحس الاسلام منه مقاومة لا تنتهي وعداوة لا مندوحة فيها من السيف . وكان من صالح العرب أن يختلطوا بالترك ليلتقي الدينان وجها لوجه حيث تكون الغلبة لأقدر الدينين علي الدفاع عن نفسه ، وحيث ترهف نفوس المقهورين لصوت دين انتشر في نصف الأرض تقريبا ، شأن أديان الغالين . والواقع

أن الديانة التركية ظلت تتراجع أمام الاسلام من ناحية وأمام البوذية من ناحية أخرى ، حتي قال بعض المؤرخين : إن الدين عند الترك لم يكن إلا رمزاً سياسياً ولم يكن تفكيراً عميقاً يثير الجدل الشديد .

أما الدين الغالب علي الترك فيما وراء النهر : فإنا نرجح أنه كان دين الفرس . فإنا نعرف أن اللانوية ، حين اضطهدوا الأوكاسرة منذ ظهورها في أواخر القرن الثالث ، هاجرت إلى أواسط آسيا وانتشرت هناك^(١) . ونحن نعلم من المصادر العربية أن بلخ كانت مقر بيت نار كبير يعرف بالنوهار وأن الفرس كانوا سدنته^(٢) .

فإذا تتبعنا الدعوات إلى الاسلام ، وجدنا أن مصادرنا العربية لا تذكر دعوة إلى الاسلام استجيت أيام قتيبة أو قبله إلا ما قيل من أن قتيبة أحرق بيوت الأصنام في سمرقند فأسلم «منهم خلق»^(٣) . ولكن الواقع أن الذين أعانوا قتيبة أيام الوليد ثم الذين استظروا بهم حين عصا أول خلفه سليمان^(٤) لم يكونوا مسلمين (لأنهم عصوا وأطاعوا مرات ولأنه لم يذكر في صلحهم إسلام) . فإذا انتقلنا إلى أيام عمر بن عبد العزيز وجدنا تطبيق القاعدة الفقهية القائلة بوضع الجزية عن أسلم يحدث في خراسان مسارعة إلى الاسلام بإسراعاً اتهم أصحابها أنهم إنما رغبوا في الهرب من الجزية . وإذا كانت ما وراء النهر من خراسان فقد أصاب أهلها من المسارعة إلى الاسلام ما أصاب أهل خراسان^(٥) ، وأحس الترك من ناحية أخرى بأن إبطال الغزو الذي أمر به عمر فاتحة عهد تفاهم (فان عمر كتب إلى والي خراسان :

(١) Albertini ، الكتاب المذكور ص ٢٧٥

(٢) البلاذري : ص ٤٠٠

(٣) نفسه : ص ٤١١

(٤) نفسه : ص ٤١٢

(٥) الطبري : ج ٨ ص ١٣٤ ، ابن الاثير : ج ١ ص ١٥٨ عام ١٠٠

« لا تغز بالمسلمين . فحسبهم الذي قد فتح الله عليهم » (الطبري) : ٨ ص ١٣٩ سيرة عمر) ، وكان من بوادر اقتناعهم بعدل المسلمين أنهم شكوا إلى الخليفة غدر قتيبة في الاستيلاء علي محرقتد^(١) . وكان مما يزيد اقتناعهم : أن عمر كتب إلى والي خراسان « لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحتم عليه » ، وإن كان قال له « لا تهدموا كنيسة ولا بيت نار »^(٢) . وكان من شأن هذا انتعاش تهينة الجول لل دعوة إلى الاسلام ، والواقع أن عمر لم يتقدم إليهم بالسيف : فقد أبطل الغزو وإنما تقدم إليهم بالدعوة إلى الاسلام ، فكتب « إلى ملوك ما وراء النهر فأسلم بعضهم »^(٣) ، وقد لا نستطيع أن نحدد هذا البعض وأن نتخرج من هذا الغموض فنشك في إسلام هذا البعض . ولكن الحرج لا معنى له لكثرة القرائن على الثقة بسياسة العدل . وهي سياسة طبقت من غير شك علي خراسان وما وراء النهر بالذات . فان عمر كتب إلى صاحب الجراج « وليس من تغور للمسلمين ثغر أهم إلى ولا أعظم عندي من ثغر خراسان »^(٤) وهي أهمية تفهم من ناحية نشر الاسلام أكثر مما تفهم من الناحية الحربية .

وإذا كان يزيد بن عبد الملك قد سار علي سياسة مالية رجعية عامة بالمنسوبة لسياسة عمر فإنه ، فيما يخص خراسان ، طبق هذه الرجعية تطبيقاً لينا بعض الشيء وذلك أن والي يزيد علي خراسان (سعيد خدينة) طأب السغد بالتأخر من الضرائب . والراجح عندنا أن التأخر كان من « تخافيف » عمر أو من رفته علي الأقل ، فاختلف هو والسغد واستؤنفت الحرب . وأسف الناس علي عهد عمر ، ولكن سعيداً كان لينا : لأنه كان إذا بعث سرية فأصاوا واغتموا رد السبي

(١) ابن الاثير : ٤ ص ١٦٣ عام ١٠١

(٢) الطبري : ٨ ص ١٤١ عام ١٠١ في سيرة عمر بن عبد العزيز

(٣) البلاذري : ص ٤١٥

(٤) الطبري : ٨ ص ١٣٩ : في سيرة عمر بن عبد العزيز عام ١٠١

وعاقب السرية (١)، ولأنه كان لا يريد أن يتفاقم العداء بين المسلمين وأهل ما وراء النهر، ولأنه كان يعتبر السغد «بستان أمير المؤمنين» فلا ينبغي تخريبه ولا إبادة أهله. فيقول للجنذ «قد هزمتهم أقريدون بوارهم» (٢)

ثم تجددت الدعوة للإسلام مرة أخرى أيام هشام بن عبد الملك وولاية أشرس علي خراسان: وكان «فاضلاً خيراً» وكانوا «يسمونهُ الكامل لغضبه». فأرسل أشرس إلى أهل سمرقند وما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام علي سنة ابن عبد العزيز: أي علي أن توضع عنهم الجزية، ولم يخرج الدعوة إلا بعد أن اشترطوا الوفاء بالوعد. فدعا الرسل «أهل سمرقند ومن حولها إلى الإسلام علي أن توضع عنهم الجزية فسارع الناس» وبنوا المساجد. فلما ضج عمال الخراج من نقصان الدخل، ورفعوا الأمر إلى والي خراسان، وضع والي شرطاً لا غبار عليه في الظاهر: وهو أن يفتش عن إسلام من أسلم: فمن «اختن وأقام الفرائض وحسن إسلامه وقرأ سورة من القرآن» وفوا له بالشرط ورفعوا خراجه، ولا بد أن تطبيق هذا الشرط كان علي شيء من التعسف شأن التفتيش دائماً، ولم يلبث والي خراسان أن ألغى شرط الدعوة وأعاد الجزية علي من أسلم، فقامت قائمة هؤلاء المسلمين المحدثين وانضم إليهم الدعوة وخرج كثير منهم عن سمرقند واجتمعوا معتزلين. فكانوا سبعة آلاف وانضم إلى الدعوة جماعة من فرسان المسلمين مثل ثابت قطنة، ولم يكن بدمن الحرب ولكن الحكومة احتالت عليهم وأظهرت الاستجابة إلى مطالبهم: حتي إذا تفرقوا أخذت الرؤساء وتبعهم، فكان من نتيجة هذا الموقف أن كفرت «الصغد وبخارى واستجاشو الترك» وكانت الفتنة عظيمة لتدخل الترك البعيدين. وكانت حرب قاسية لأن الناس ظلوا يذكرون يوماً من أيامها يعرف بيوم العطش (٣). واستولى

(١) ابن الأثير: ٤٠ ص ١٧٩/١٨٠ عام ١٠٢

(٢) الطبري: ٨ ص ١٦٥/١٦٦ عام ١٠٢

(٣) ابن الأثير: ٤٠ ص ٣/٢٠٢ عام ١١٠

الصغد وغيرهم على كل ما وراء النهر ، وارتد أهل كردر (١).

وهكذا خرجت الدولة على سياسة الدعوة للإسلام بشرائطها اللينة المريحة فكان ترك اللين سببا في فتنه كلفت الدولة دماء وحروبا كثيرة .

ولم تعد الأمور إلى ما كانت عليه إلا بعد أن مل الطرفان الحرب وتغيرت السياسة العربية . وولى نصر بن سيار فعمد نصر إلى سبب هذه الثورة والحرب : وهي الجزية ، فأقر فيها حكم الإسلام ، فلم تمض إلا جمعة حتى أتاه ٣٠ ألف مسلم كانوا يؤدون الجزية عن رؤوسهم و ٨٠ ألفا من المشركين كانت ألقبت عنهم . فحول ما كان على المسلمين إليهم ووضع عن المسلمين (٢) . وقد كان حلا موفقا لأنه ضمن للتداعيين في الإسلام أن خزائن الدولة لن تنظر إليهم فيما بعد نظرتها إلى مفتسين . وهكذا عادت خراسان وما وراء النهر ، سنة ١٢٠ إلى السياسة التقليدية اللينة .

وأمن الصغد جانب المسلمين ، فلم تمض سنتان حتى صالحوا ، ونالوا شرط الدعاة وشرطا آخر هو ألا يعاقب من كان مسلما فارتد ، وفضل نصر أن يتسع لهم الدين على أن تتسع لحربهم سيوف المسلمين ، وأجاب من أنكروا هذا اللين فقال « لو عانيت شوكتهم في المسلمين مثل ما عانيت ما أنكرتم ذلك » ، وأرسل ليستشير هشاما الخليفة فأقر رأيه (٣) . وكان لهؤلاء الترك أن يعتنقوا الإسلام على الوجه الذي يحبون في ظل التسامح الديني ، والذي لا شك فيه أن المسلمين الأتراك عادوا إلى مساجدهم الأولى وبنوا غيرها ، وإن لم تشر إلى ذلك للمصادر . وهكذا بدا أن السياسة التي استقر عليها الأميون آخر الأمر هي سياسة عمر بن عبد العزيز . ولم يكن أهل الصلاح والمثل الطيب الذين يحبون الإسلام إلى الترك ، قليلين ،

(١) نفسه : ج ٤ ، ص ٢٠٥ عام ١١٠

(٢) ابن الأثير : ج ٤ ، ص ٢٤٣ عام ١٢١

(٣) نفسه : ج ٤ ، ص ٢٥٠ عام ١٢٣

فان أحد من سكنوا سمرقند أيام قتيبة : الضحاك بن مزاحم هو صاحب التفسير (١). وكذلك كان يعيش ببلخ في آخر القرن الثاني زاهد مجاهد هو شقيق البلخي الزاهد قتل في غزاة ، وكان شيخ زاهد آخر معروف هو حاتم الأصم ، وحج شقيق مرة وفي صحبته ٣٠٠ مرید ، وكان شيخ خراسان (٢) . ومن أقياء هذه الناحية أيضا العلماء : الفضيل بن عياض الزاهد ، وكان مولده بسمرقند وانتقل الى مكة فمات بها (٣).

فلما قامت الدولة العباسية سارت على الأرجح على هذه السياسة المرسومة إلى زمن المأمون ولم تحذف من أصولها شيئا : لأن المصادر لا تذكر ذلك ولا نلاحظ إلا شيئا من الشدة على الناكثين وإلا المتابعة على الغزو . فاذا ولي المأمون ارتسمت في عهده السياسة النهائية : سياسة الشدة في الحرب والدعوة للإسلام والترغيب في الجندية ، وأخذ المأمون بكل طرف من أطراف هذه السياسة معاً ، كأنما وفق بين طرائق الدبلوماسية الإسلامية القديمة جميعاً ، فانه ألح عليهم «بالحروب والغارات» ثم «كان مع تسريته الخيول إليهم يكاتبهم بالدعاء إلى الإسلام والطاعة والترغيب فيها» (٤) «وكان يكتب إلى عماله على خراسان في غزو من لم يكن على الطاعة والإسلام من أهل ما وراء النهر» وهذا هو العود إلى سياسة الفتوح مع الأخذ بالترغيب في الإسلام . «وغلّب الإسلام على من هناك» بسياسة الدعوة .



خاتمة

ولا نستطيع أن نختم المقال بخير مما روي البلاذري ، فانه فطن إلى ما أدت

(١) البلاذري : ص ٢١١

(٢) ابن الأثير : ج ٥ ص ١٤٢ عام ١٩٤

(٣) ابن الأثير : ج ٥ ص ١٢٠ عام ١٨٧

إليه هذه السياسة العربية من توفيق ، وسجل أن أهل هذا الثغر دخلوا الاسلام ، وأصبحوا حمانه « يغزون من وراءهم من الترك » فيصلون إلى فواحي بعيدة ، وهو أكبر توفيق تطمع فيه دولة تريد أن تحمي حدودها وأن تنشر حضارتها .

وقد ذكر البلاذري كذلك حقيقة أخرى -أدى إليها الاشرار الذي ذكرناه- وهي أن «جل شهود عسكر» الخلافة صار من الترك ، وهي واقعة لم تكن لتتنبأ لولا أن هذه السياسة العربية المرنّة قد مهدت لها تمهيدا طويلا . فلم يكن استخدامهم كاستخدام المرتزقة ، ولا كان ابتداء سياسة مبتكرة دفعة واحدة في كل نواحيها .

ولم تكن هذه النتائج ممكنة لو أن العرب غلبوا جانب السيف ولم يدعوا سيلا إلى التغامر .

ولكننا لم نرد من وراء هذا البحث عرض هذه النتائج وبيان مقدماتها فحسب ، وإنما أردنا فوق ذلك أن نبين ناحية من سياسة العرب في حماية حدودهم : وهي نظام الحلف الذي يفرضونه على جيرانهم ويؤيدونه بالغزو السنوي استبقاء الطاعة الأحلاف واستظهارا بالقوة أمام من وراء الأحلاف من أعداء . ونحن نعلم أن هذا النظام طبق على أرمينية فلم يأت بمنزل هذه النتائج . وأنا أزعم كذلك أنه طبق أيضا في أفريقية أيام عقبة بن نافع فأتى بأكبر مما تهبأ لهذا النظام من نتائج . ولكل جملة من هاتين الحالتين تفسيرها : لولا أن هذا المقال مقتصر على ترك ما وراء النهر

م. ع. شعيرة

مدرس بكلية الآداب بجامعة وروق الأوز
بالاسكندرية